عبد الحميد كشك

شفاء القلوب

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ
أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ».

« قرآن كريم »

المكتب المصري الحديث

اهـــــداء

- الى كل ذى قلب سليم ...
- الى كل ذى قلب معلق بالمساجد ...
- الى الذين صفت أرواحهم ، وزكت نفوسهم ...
- الى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ...

أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب .

- أهدى كتابى هذا اليهم ...

لعل الله يرزقنا واياهم الحسنى وزيادة .

عبد الحميد كشك

شفاء القلوب

مقـــدمـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين .

وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين .

صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبى الأمين ، وعلى آله وصحابته الغر الميامين ؛ وارحم اللهم مشايخنا ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين . .

اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله . . . نشكرك ولانكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ...

اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ... نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجِدّ بالكفار ملحق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم ؛ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

الحمد لله رب العالمين ، بيده الأمر كله ؛ فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وقل : اللهم أغننا بالفقر إليك ، ولاتفقرنا بالاستغناء عنك . . .

يارب : إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : « ورحمتى وسعت كل شىء » ، وأنا شىء ، فلتسعنى رحمتك !!

وأشهد أن لا إله إلا الله ، أحب الطائعين وتولاهم بحفظه ، فقال فى الحديث القدسى الجليل : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ؛ وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ؛ ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وفؤاده الذى يعقل به ، ولسانه الذى يتكلم به ؛ ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وإذا استنصرنى نصرته ، ويكون من أولیائى وأصفيائى ، ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء فى الجنة ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ، ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت ، وأنا أكره مساءته » .

يارب :

رضـــاك خير من الدنيا ومافيها يامالك النفس : قاصيها ودانيها

فليس للروح آمال تحققهـــا سوى رضاك، فذا أقصى أمانيها

فنظرة منك ياسؤلى ويا أمـــلى خير إلى من الدنيا ومافيها

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، تشتاق النفوس إلى رؤياه ، وتبتهج الأرواح بنور محياه ؛ يقول لأصحابه ذات يوم : إن من عباد الله أناساً ليسوا بأنبياء ولاشهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، لمكانهم من الله تعالى ، قالوا يارسول الله : تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله لغير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ؛ فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لايخافون إذا خاف الناس ، ولايحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلا قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

صلت عليك ملائك الرحمـــن وسرى الضياء بسائر الأكوان

لما طلعت على الوجـــود مزوداً بحمى الإلـــه ورايـة القرآن

صلى عليك الله ياعلم الهدى ، ماهبت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

أما بعد :

فإن هذا الكتا ب يحتوى على مايشفى القلوب، عندما ترتوى من المنهل العذب المورود : كتاب الله وسنة رسوله . . . ففيهما الكلمة الطيبة ، وهى — كما قال ربنا — كشجرة طيبة أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

والسعادة كلها فى اتباع منهج الله؛ وليست السعادة فى انتشاء الكؤوس المترعة ، ولا الاستمتاع بالغيد الأماليد ... إنما السعادة كل السعادة بمعناها الحقيقى ، الذى لايمارى فيه إلامكابر : تتمثل فى رضا الله تبارك وتعالى .

وها هو ذا كتاب الله ينطق بالحق : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم » ، ويقول جل شأنه : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم » ، ويقول سبحانه « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » :

إننى أخط سطور هذا الكتاب وقد زحفت التيارات المادية اللافحة بظلماتها وسمومها ، تحاول أن تحجب ضوء الروح ، وتخمد نور القلب ؛ وأقبلت الدنيا بخيلائها وغرورها ومفاتنها ، تسعى لتطوق بذراعيها وتحكم قبضتها ، تحاول أزهاق القيم ، والقضاء على المثل العليا ، والمبادىء الأخلاقية . . .

تملك الناس الهـــوى والغرور وفتنة الغيد ، وسكنى القصور
ولو تزال الحجب : بانت لهـــم زخارف الدنيا وعقبى الأمور !

* * *

نيكسون ، ورأيه فى الحرية :

وإنه ليحضرنى فى هذا المقام ماقاله أحد الساسة الأمريكيين . وهو المستر ريتشارد نيكسون » ، الذى تولى حكم الولايات المتحدة ، فى العشرين من يناير سنة ١٩٦٩ ، وهو الرئيس السابع والثلاثين فى أمريكا ... وكان أول بيان ألقاه يوم توليه السلطة ، قوله :

إن الأمة الأمريكية تعانى أزمة روحية ... لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع ، ولكننا فقراء فى الروح ، نصل فى قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط خلاف حاد على الأرض ... كيف نكون أحراراً ، وجارنا لايتمتع بتلك الحرية ؟ ! ! » .

* * *

وهكذا تبدو الأمور صريحة واضحة !!

إن الفقر ليس فقر المادة ، وإن الشقاء ليس مصدره فقد المادة ، إنما الفقر الحقيقى ، هو الذى يصيب الروح :

ياخادم الجسم : كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران؟
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لابالجسم إنسان !
وامدد يديك بحبل الله معتصماً ... فإنه الركن ، إن خانتك أركان ! !

أجل ياسيدى يارسول الله ! ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس !

وروادته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه ، فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم

ما أشد حاجة البشرية إلى إرشادك المجيد ، وقولك السديد ، وتوجيهك الرشيد ؛ وقد رويت عن ربك فى الحديث القدسى الجليل : « ابن آدم : عندك مايكفيك ، وأنت تطلب مايطغيك ؛ لابقليل تقنع ، ولا من كثير تشبع .. إذا كنت معافى فى بدنك ، آمناً فى سربك ، عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء » !

يا أخا الاسلام :

إن السعادة مملكة من ممالك الله العظمى ، يقيمها جل شأنه فى ساحات النفوس المطمئنة ، ورحاب القلوب الراضية ؛ فيشرق العقل بنورها ، وينتصر الذهن بهديها ، وتزكو النفس بطهرها .

اللهم اعط النفوس تقواها ، وزكها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

وما أجمل ما جاء فى الحكمة القائلة :

من أراد مؤنساً : فالله يكفيه ومن أراد حجة : فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى : فالقناعة تكفيه، ومن أراد واعظاً : فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شىء من هذا : فإن النار تكفيه .

وقالت العارفة بالله تعالى « رابعة العدوية » :

لو كانت الدنيا كلها ملكاً لواحد من الناس : ما كان بها غنياً .

قيل : وكيف ؟

قالت : لأنه ميت وراحل عنها ، وهى صائرة إلى فناء ! !

المؤلف

أقسام القلوب

القلوب ثلاثة : قلب سليم ؛ وقلب مريض ؛ وقلب ميت .

وإليك بيان كل منها :

القلب السليم

وهو الذى يقول فيه مولانا تبارك وتعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام « ولاتخزنى يوم يبعثون ٭ يوم لاينفع مال ولابنون ٭ إلامن أتى الله بقلب سليم » .

ولقد أعطى الله خليله ماتمناه فقال : « وإن من شيعته لإبراهيم ٭ إذ جاء ربه بقلب سليم » .

وصاحب القلب السليم : إنسان امتلأ قلبه بالرضى والطمأنينة والسكينة ... لايعرف غلا ولاحسداً .. قال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

كذلك فإن القلب السليم : قلب يقظ ، يعيش فى حال مراقبة مع الله قال جل شأنه : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله : وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته : زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ٭ الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ٭ أولئك هم المؤمنون حقاً » ، ويقول جل شأنه : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .

والقلب السليم : يجد طمأنينة فى هذا الذكر ... قال سبحانه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ،ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

القلب المريض

أما القلب المريض ، فإما أن يكون مرضه مرض شهوة ، وإما أن يكون مرض شبهة :

أما مرض الشهوة ، فيبينه الكتاب العزيز فى قوله تعالى : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض» ؛ وأما مرض الشبهة ، فهو النفاق الذى لايجعل القلب ثابتاً على معرفة الله وطاعته... وفى هؤلاء يقول القرآن العظيم : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر، وماهم بمؤمنين ۞ يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، ومايشعرون ۞ فى قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » .

القلب الميت

أما القلب الميت : فهو الذى ختم عليه ، فأظلم وأصبح لايرى نوراً : « ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور » . . . .

يقول جل شأنه فى أصحاب هذه القلوب : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ۞ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » ؛ ويقول فى شأنهم أيضاً : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لايفقهون بها ،ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام ،

بل هم أضل، أولئك هم الغافلون »، ويقول أيضاً : « فإنها لاتعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ، ويقول جل شأنه: « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » ؛ ويقول سبحانه : « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين » .

القلوب محط نظر الرحمن

إعلم يا أخى أن علم القلوب ملىء بالحقائق والأسرار ؛ ودولة القلوب لايطلع على مافيها إلا العليم بذات الصدور . . .

ولذا ذكروا أن أحد الصالحين لما حضرته الوفاة قال له بعض جلسائه : أخبرنا ماذا كنت تفعل فى دنياك ؟ فقال : وقفت على باب قلبى أربعين سنة ، كلما مر به شيء غير ذكر الله . منعته من الدخول فيه ! !

ولمكانة القلوب السليمة عندالله . منزلة عظيمة . . . جاء فى الحديث القدسى قوله جل شأنه : « ما وسعنى أرضى ولاسمائى ، وإنما وسعنى قلب عبدى المؤمن » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو ربه فيقول : (يامقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك)

وقال أحد العارفين بالله :

ياحبيب القلوب ! هب لى رضاك وارحم اليوم مذنباً قد أتاك

يا إلهى ومنيـــتى وسرورى ! قد أبى القلب أن يحب سواك !

وقد سئل الإمام على كرم الله وجهه فقيل له : يا إمام : هل رأيت ربك فقال : وكيف أعبد ما لا أرى؟ قالوا : فكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لاتراه بمشاهدة العيان ، فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان ! !

رضى الله عنك وكرم وجهك يا على ، ياصاحب القلب السليم .

قلوب العارفين لهـا عيون ترى مالا يـرى للنـاظرينا
وأجنحـة تطـير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا !

« رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .

شفـاء القلـوب

شفاء القلوب : إنما يكون فى ذكر الله ، واستحضار عظمته، وهيمنة سلطانه على العبد فى سره وعلانيته، وقوله وفعله ، وحركته وسكونه .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذامررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا: وما رياض الجنة ؟ قال :حلق الذكر) (رواه الترمذى)

ما مكانة هؤلاء عند الله تبارك وتعالى ، وما منزلتهم ، وما درجتهم؟

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة فى وجوههم النور ، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولاشهداء . قال: فجثا أعرابى على ركبتيه وقال : يارسول الله حلهم لنا نعرفهم ؟ قال: هم المتحابون فى الله من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه) (رواه الطبرانى بإسنادحسن)

ومجالس الذكر : مواطن الرحمة ، ومهابط السكينة ، ورياض الملائكة .

عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : (لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده) (رواه مسلم والترمذى)

* * *

وحدث عن مكانة هؤلاء ولاحرج ، فإن قلوبهم لما عمرت بذكر الله فى الدنيا : أشرقت بنور الله يوم القيامة . . وحسبك شاهداً على صحة هذه القضية : ماروى عن عمرو بن عبسة قال :

(سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : عن يمين الرحمن — وكلتا يديه يمين — رجال ليسوا بأنبياء ولاشهداء ، يغشى بياض وجوههم نظر الناظرين ، يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله عز وجل ؛ قيل : يارسول الله من هم ؟ قال : هم جماع من نوازع القبائل ، يجتمعون على ذكر الله ، فينتقون أطايب الكلام ، كما ينتقى آكل الثمر أطايبه) . (رواه الطبرانى)

وصـــايا نبوية

إذا علمت فضل الذاكرين ، فاحذر أن تغفل عن ذكر الله ... فقد جاءت الأحاديث تحذر من أن يجلس الإنسان مجلساً لايذكر الله فيه ... قال صلوات الله وسلامه عليه : (مامن قوم يقومون من مجلس لايذكرون الله فيه ، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار ، وكان عليهم حسرة يوم القيامة) .

* * *

ولقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم أذكار يرددها فى حياته الكريمة ،

وكان صلى الله عليه وسلم يصف هذه الأذكار بأنها علاج لكثير من الأمور :
إذا جلست مجلساً كثر اللغط فيه ، فعليك أن تقول عند انصرافك : (سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) فإن هذا الذكر يسمى : كفارة المجلس .

وعن خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه أصابه أرق ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن نمت؟ قل: اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت : كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط على أحد منهم ، أو أن يبغى على ؛ عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، ولا إله إلا أنت) .

وعنـــد الوحشة :

إذا شعر الإنسان بالوحشة وضيق النفس ، فعليه أن يردد هذا الذكر الذى رواه البراء عن عازب أن رجلا اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الوحشة ، فقال : (قل سبحان الله الملك القدوس ، رب الملائكة والروح ، جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت) فقالها الرجل ، فأذهب الله عنه الوحشة .

الرؤيا يكرهها المرء ماذا يقول ، وماذا يفعل ؟

عن جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها : فليبصق عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وليتحول عن جنبه الذى كان عليه)
(رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة)

وعن أبي سعيد الخدرى أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنها هى من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بما رأى ؛ وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هى من الشيطان، فليستعذ بالله من شرها ، ولا يذكرها لأحد، فإنها لاتضره » رواه الترمذى

مايقوله عنـــدما يلبس ثوباً :

روى ابن السنى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا لبس ثوباً أو قميصاً أو رداء أو عمامة يقول : (اللهم إنى أسألك من خيره وخير ماهو له ، وأعوذ بك من شره وشر ماهو له) .

وروى عن معاذ بن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : (من لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول ولا قوة : غفر الله له ماتقدم من ذنبه) .

وتستحب التسمية كذلك ، فإن كل شىء لايبدأ فيه ببسم الله فهو ناقص .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استجد ثوباً سماه باسمه — عمامة أو قميصاً أو رداء — ثم يقول : اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ماصنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من لبس ثوباً جديداً فقال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم عمد إلى الثوب

الذى أخلق (بلى) فتصدق به ، كان فى حفظ الله وفى كنف الله عز وجل ، وفى سبيل الله حياً وميتاً) .

وصح أنه صلى الله عليه وسلم قال لأم خالد — بعد أن ألبسها خميصة — : (أبلى وأخلقى) وكانت الصحابة تقول : تبلى ويخلف الله .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على (عمر) رضى الله عنه ثوباً فقال : (البس جديداً ، وعش حميداً ، ومت شهيداً سعيداً) .

مايقـــول عنـــد خلع الثوب :

إذا أردت أن يستر الله عن عيون الجن عندما تخلع ثوبك ، فعليك أن تردد هذا الذكر الذى رواه أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال (ستر مابين أعين الجن وعورات بنى آدم ، أن يقول الرجل المسلم إذا أراد أن يطرح ثيابه : بسم الله الذى لا إله إلا هو) .

وعند الخروج من المنزل :

إذا أردت أن يكفيك الله شر الشيطان وشر من على الأرض ، فقل عند خروجك من المنزل هذا الذكر الذى رواه أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من قال بسم الله ، آمنت بالله ، وتوكلت على الله ، ولاحول ولا قوة إلا بالله ، يقال له كفيت ووقيت وهديت ، وتنحى عنه الشيطان ؛ فيقول الشيطان لغيره : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى ! ؟) .

وفى مسند أحمد عن أنس : (بسم الله ، اعتصمت بالله ، توكلت على الله ، لاحول ولا قوة إلا بالله) .

وروى أهل السنن عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيتى إلا رفع طرفه إلى السماء فقال : (اللهم إنى أعوذ بك أن أَظِلَّ أو أُظَلَّ ، أو أَذِلَّ أو أُذَلَّ ؛ أو أزل أو أُزَل ؛ أو أَضِل أو أُضَل ، أو أَجْهَل أو يُجْهَل على) .

وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان : لامبيت لكم ولاعشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال : أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء) .

وفى سنن أبى داود عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا ولج الرجل بيته فليقل : اللهم إنى أسألك خير المولج وليسلم على أهله) . وفى سنن الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يابنى : إذا دخلت على أهلك فسلم : تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك) .

إذا رأى شيئاً يعجبه من أهل أو مال :

ينبغى للمؤمن إذا رأى مايعجبه من أهله أو ماله أن يقول : « ماشاء الله لاقوة إلا بالله ، فإنه لايرى بها سوءاً ؛ فإن رأى مايسوءه فليقل : الحمدلله على كل حال ؛ قال الله تعالى : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله) . وروى ابن السنى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ومال وولد فقال ماشاء الله لاقوة إلا بالله ، فيرى فيها آفة دون الموت) .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى مايسره قال : (الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى مايسوءه قال : الحمد لله على كل حال) . (رواه ابن ماجة)

مايقوله المؤمن إذا نظر فى المرآة :

روى ابن السنى عن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا نظر فى المرآة قال : (الحمد لله ، اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى) . وروى عن أنس قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نظر وجهه فى المرآة قال : الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله ، وكرم صورة وجهى فحسنها ، وجعانى من المسلمين) .

مايقال عند رؤية أهل البلاء :

روى الترمذى وحسنه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من رأى مبتلى فقال : : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا ، لم يصبه ذلك البلاء) .

قال النووى رضى الله عنه : قال العلماء : ينبغى أن يقول هذا الذكر سراً ، بحيث يسمع نفسه ولايسمعه المبتلى ، لئلا يتألم قلبه بذلك ، إلا أن تكون بليته معصية ، فلا بأس أن يسمعه ذلك ، إن لم يخف من ذلك مفسدة .

ماذا يقول إذا سمع صياح الديكة ، ونبح الكلب ، ونهيق الحمار :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها

رأت شيطاناً ، فإذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكاً) .

وعن أبي داود : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فتعوذوا بالله منهن ، فإنهن يرين مالا ترون) .

إذا هاجت الريح :

روى أبو داود إسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الريح من روح الله تعالى ، تأتي بالرحمة ، وتأتي بالعذاب ؛ فإذا رأيتموها فلا تسبوها ، وسلوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها) . وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير مافيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر مافيها وشر ما أرسلت به) .

مايقول عند سماع الرعد :

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال : (اللهم لاتقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك) .

الذكر عند رؤية الهلال :

روى الطبراني عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال : الله أكبر ، اللهم أهله علينا

بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ؛ ربنا وربك الله) .

وعن أبى داود مرسلا عن قتادة : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال : (هلال خير ورشد ، هلال خير ورشد ، آمنت بالله الذى خلقك — ثلاث مرات — ثم يقول : الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا) .

أذكار الكرب والحزن :

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : (لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم) .

وفى سنن الترمذى عن أنس رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر قال : (ياحى ياقيوم ، برحمتك أستغيث) . وفيه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أهمه الأمر : رفع رأسه إلى السماء فقال : (سبحان الله العظيم) ، وإذا اجتهد فى الدعاء قال : (ياحى ياقيوم) .

وفى سنن أبى داود عن أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت) .

وفيه أيضاً عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت ؛ (قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب — أو فى الكرب — ؟ : الله ، الله ربى لا أشرك به شيئاً) ، وفى رواية : أنها تقال سبع مرات .

وفى سنن الترمذى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين — لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط ، إلا استجيب له) .

وفى رواية له : (إنى لأعلم كلمة لايقولها مكروب إلا فرج الله عنه : كلمة أخى يونس عليه السلام) . وعن أحمد وابن حبان عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ما أصاب عبداً هم ولاحزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أوعلمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ... إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحاً) .

مايقال عند لقـــاء العدو ، وعند الخوف من الحاكم :

روى أبو داود والنسائى عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوماً قال : (اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم) .

وروى ابن السنى رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة فقال : (يامالك يوم الدين ، إياك أعبد وإياك أستعين) قال أنس : فلقد رأيت الرجال تصرعها الملائكة من بين يديها ومن خلفها .

وروى أيضاً عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا خفت سلطاناً أوغيره فقل : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربى ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، لا إله إلا أنت ، عز جارك ، وجل ثناؤك) .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (حسبنا الله ونعم الوكيل : قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال له الناس : إن الناس قد جمعوا لكم) .

وعن عوف ابن مالك رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم : قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس (العمل) ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى الله ونعم الوكيل » .

مايقال عند استصعاب الأمور :

روى ابن السنى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهم لاسهل إلاماجعلته سهلا ، وأنت تجعل الحزن — غليظ الأرض وخشنها — سهلا) .

وإذا تعسرت معيشته :

روى ابن السنى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(مايمنع أحدكم إذا عسر عليه أمر معيشته أن يقول إذا خرج من بيته : بسم الله على نفسى ومالى ودينى ، اللهم رضنى بقضائك ، وبارك لى فيما قدر ، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ماعجلت) .

فى أداء الدين :

روى الترمذى وحسنه عن على رضى الله عنه : أن مكاتباً جاءه فقال إنى عجزت عن كتابتى فأعنى ، فقال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان عليك مثل جبل صبر ديناً إلا أداه الله عنك ؟ قل : اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك) .

وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبوأمامة فقال له : مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله، قال : أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك ؟ قلت بلى يارسول الله ، قال قل إذا أصبحت وإذا أمسيت :(اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال . قال ففعلت ذلك ، فأذهب الله همى ، وقضى عنى دينى) .

وإذا نزل به مايكره ، أو غلب على أمره :

روى ابن السنى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : (ليسترجع أحدكم فى كل شىء ، حتى فى شسع نعله ، فإنها من المصائب)(١) :

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، إحرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولاتعجز : وإذا أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا ، كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وماشاء فعل ، فإن « لو » : تفتح عمل الشيطان) .

مايقوله من نزل به الشك :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك : فليستعذ بالله ولينته) . وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : (لايزال الناس يتساءلون ، حتى يقال : خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله ورسله) .

مايقال عند الغضب :

روى البخارى ومسلم عن سليمان رضى الله عنه قال : (كنت جالساً مع النبى صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان : أحدهما قد احمر وجهه، وانتفخت أوداجه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (إنى لأعلم كلمة لو قالها : ذهب عنه مايجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ذهب عنه) .

---

(١) يسترجع : يقول اذا نزل به مايسوءه ..حتى ولو انقطع الشسع — « انا لله وانا اليه راجعون » . والشسع أحد سيور النعل التى تشد الى زمامها .

القرآن الكريم (ذكر مبارك)

قال تعالى : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » ، وقال جل شأنه : « ص * والقرآن ذى الذكر » ، وقال سبحانه : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

بعد أن فرغنا من الحديث عن الأذكار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأينا أن نتحدث عن أعظم ذكر ، ألا وهو القرآن الكريم الذى أمر الله عباده المؤمنين بترتيله ، فقال جل شأنه : « ورتل القرآن ترتيلا » ، وقال تعالى : « فاقرأوا ماتيسر من القرآن » .

وبين علو شأن هذا الكتاب من بين الكتب السماوية فقال مقسما به : « حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » .

وجعل ليلة نزوله ليلة مباركة ، فقال مقسما به : « حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين » .

وبين قدر هذه الليلة فقال : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ماليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام ، هى حتى مطلع الفجر » .

وبين مكانة الملك الذى نزل به فقال : « إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ، ثم أمين » .

وبين مكانة الرسول الذى أنزل عليه هذا الكتاب فقال : «وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وهانحن أولاء نسير فى روضات القرآن الفيحاء ، وجناته الباسمة ، نقطف منها كل مالذ وطاب ، لينزل على القلوب ، برداً وسكينة وسلاماً

فضل تعلم القرآن ، وتعليمه ، وقراءته :

اعلم أن فضل القرآن عظيم ، وتعليمه وقراءته ترفع صاحبه إلى أعلى الدرجات . بهذا نطق الفم الشريف ، فقال صلوات ربى وسلامه عليه : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ، وقال صلوات الله وسلامه عليه فى فضل القرآن : (من قرأ حرفاً من كتاب الله ، فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ؛ لاأقول « آلم » : حرف ، ولكن : ألف : حرف ، ولام : حرف ، وميم : حرف) .

وحسبك فى فضل مجالس القرآن ، التى تشتمل على التلاوة والدراسة ، مايقوله الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) .

ويكفيك شرفاً — أيها الذاكر للقرآن الكريم ، يامن تعمل بأحكامه — أن يذكرك الإله العظيم فى الملإ الأعلى . . . ويكفيك فخراً أن يفوح العالم العلوى والملأ الملائكى بذكراك العاطرة ! !

تـــزود من حيـــاتك للمعـــاد وقـــم لله ، واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيـــا كثـــيراً فإن المـــال يجمع للنفـــاد !
أترضى أن تكون رفيق قـــوم: لهـــم زاد ، وأنت بغير زاد

واعلم أن فضل القرآن الكريم ليس قاصراً على القارىء له فقط ، بل إنه يمد يد السماحة كرماً وفضلا ، فيبسط أجنحته ليشمل القارىء والمستمع ... اقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : (من استمع إلى آية من كتاب الله : كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها : كانت له نوراً يوم القيامة) .

وإذا شغلت بالقرآن عن المسألة والطلب : فإن الله يعطيك أفضل مايعطى السائلين ... قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث القدسى : (من شغله القرآن عن مسألتى : أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ؛ وفضل كلام الله على سائر الكلام : كفضل الله على خلقه) ! !

* * *

هل تستطيع العقول والأفهام أن تدرك فضل كلام الله ، إذا كان ذلك من الدرجة ، بحيث لاتحيط به العقول ، ولاتدركه الأذهان ؟ !

إن فضل كلام الله على سائر الكلام : كفضل الله جل وعلا على سائر خلقه .

وكأنى بالإمام البوصيرى رضى الله عنه وهو يذكر فضل هذا الكتاب يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، فيقول رحمه الله تعـــالى :

دعنى ووصفى آيات له ظـهرت ... ظهور نـار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسناً وهو منتظـم ... وليس ينقص قدراً غير منتظم
فمـا تطـاول آمال المديح إلى ... مافيه من كرم الأخـلاق والشيم
آيات حق من الرحمـن محدثـة ... قديمة ، صفة الموصوف بالقدم
دامت لدينا ، ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تـدم
محكمات ، فما تبقين من شُبَـه ... لدى شقاق وماتبغين من حكم
ماحوربت قط ، إلاعادمن حرب ... أعدى الأعادى إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معـارضها ... رد الغيور يد الجـانى عن الحرم
لها معان كموج البحـر فى مـدد ... وفوق جوهره فى الحسن والقيم
فما تعـد ولا تحصى عجـائبها ... ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له : ... لقد ظفرت بحبل الله فاعتصـم
كأنها الحوض تبيض الوجوه به ... من العصاة ، وقد جاءوه كالحمم

* * *

ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا للمؤمن الذى يقرأ القرآن ، والذى لايقرأه ؛ وللمنافق الذى يقرأ القرآن ، والذى لايقرأه ؛ وجاء المثل رائعاً فى مبناه ، جليل الفائدة فى معناه ... قال صلوات الله وسلامه عليه : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن : كمثل الأترجة — التفاحة — ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن كمثل التمرة لاريح لها ، ، وطعمها حلو ؛ ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن : كمثل الحنظلة ، ليس لها ريح وطعمها مر)

أخا الإســـلام :

إلزم قراءة القرآن ، واعلم بأن الأجر والثواب على قدر المشقة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : (الماهر بالقرآن : مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق : له أجران) وفى رواية : (والذى يقرأه وهو يشتد عليه : له أجران) .

ورحم الله الإمام الشاطبى حيث يقول :

وخير جليس لايمل حديثـــه ... وترداده تزداد فيـــه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته ... من القبر ، يلقاه سناً متهـــللا
هنالك يهنيه مقيـــلا وروضة ... ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
فيا أيها القـــارى به متمسكاً ... مجـــلا له فى كل حال مبجلا
هنيئاً مريئاً ، والداك عليهما ... ملابس أنوار من التاج والحلى

وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » ؛ وجل جلال الحق إذ يقول : « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل ؛ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا » .

وصـــية غاليـــة :

تعال يا أخى لنقضى هذه اللحظة المباركة مع أبى ذر الغفارى رضى الله عنه وهو يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوصية ، فيقدم له الرسول هذه الوصية الغالية ، فيستزيده أبو ذر رضى الله عنه ، فيزيده سيد الخلق وحبيب الحق .

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أوصنى ، قال : (عليك بتقوى الله ، فإنه رأس الأمر كله. قلت يارسول الله زدنى . قال: عليك بتلاوة القرآن ، فإنه نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء) .

فضل العمل بالقرآن :

اعلم ياصاحب القرآن أن هذا الكتاب الكريم يكون لصاحبه ، العامل به ، شفيعاً إلى الجنة ؛ أما من أهمله وخالف أمره ولم يعمل بأحكامه : قاده إلى النار وعذابها ... قال صلى الله عليه وسلم : (القرآن شافع مشفع وماحل مصدق ، من جعله إمامه : قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره : ساقه إلى النار) ! !

وعن أبي أمامة الباهلى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اقرأوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه) . وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ القرآن وعمل به : ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا ، فماظنكم بالذى عمل بهذا ؟) .

أى أن الذى يقرأ القرآن ويعمل به : ألبسه الله تاجاً أبهى ، وكان ثوابه أكثر .

وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم : (ما أذن الله لعبد فى شيء : أفضل من ركعتين يصليهما ، وإن البر ليذرّ على رأس العبد مادام فى صلاته — يعنى الخير والحسنات لتنصب وتغدق

بكثرة ، فينالها المصلى مدة صلاته — وماتقرب العباد إلى الله بمثل ماخرج منه — يعنى القرآن .

حقاً : إن خير وسيلة لإرضاء الرب جل فى علاه : قراءة القرآن .

القـــرآن يوم القيامة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يجىء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن : يارب حله — ألبسه حلة — فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول : يارب زده ، فيلبس حلة الكرامة ثم يقول : يارب ارض عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة) . (رواه الترمذى)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق — اصعد إلى الدرجات العالية — ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرأها) .

الغبطة ، وحديث : لاحسد إلا فى اثنتين :

الغبطة : هى أن تتمنى أن يعطيك الله مثل ما أعطى غيرك . . .

فماهو الشىء الذى تتمنى أن يكون لك مثل ماهو لغيرك ؟

يجيب على هذا السؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : (لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله هذا الكتاب فقام به آناء الليل وآناء النهار ؛ ورجل أعطاه مالا فتصدق به آناء الليل وآناء النهار) .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال : (لاحسد إلا فى اثنتين : رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال ليتنى أوتيت مثل ماأوتى فلان ، فعملت مثل مايعمل . ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل مايعمل) .
(رواه البخارى)

هذا هو الحسد الذى يحبب الشرع فيه ، ويرغب ليجعل منه مايملأ فراغ النفس ؛ وفى نفس الوقت فإنه ينفر كل التنفير من الحسد البغيض ، وهو أن يتمنى العبد زوال نعمة الله عن خلقه ؛ وفيه يقول الكتاب العزيز : « ومن شر حاسد إذا حسد » ؛ ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف ، (إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) .

أثر القرآن فى نفوس الصالحين :

لقد كان السلف الصالح عندما يقرأون كتاب الله : يقفون عند معانيه ، ويتدبرون أحكامه ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه : (اقرأوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » ؛ وكما يقول فى حديث آخر : (قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب) .

الأصمعى ... وحفيد على كرم الله وجهه :

وها نحن أولاء نسجل هذه الصورة الفياضة بنور الإيمان ، لنتبين مدى فهم هؤلاء الصالحين للقرآن الكريم ووقوفهم عند آيات هذا الكتاب العظيم .

روى عن الأصمعى رحمه الله تعالى قال : بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة ، إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول :

يامن يجيب دعا المضطر فى الظلم ... ياكاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت ياحى ياقيوم لم تنم
أدعوك ربى حزيناً هائماً قلقاً ... فارحم بكائى بحق البيت والحرم
إن كان جودك لايرجوه ذوسفه ... فمن يجود على العاصين بالكرم؟!

ثم بكى بكاءاً شديداً وأنشد يقول :

ألا أيها المقصود فى كل حاجة ... شكوت إليك الضر ، فارحم شكايتى
ألا يارجائى ! أنت تكشف كربتى ... فهب لى ذنوبى كلها ، واقض حاجتى
أتيت بأعمال قباح رديئة ... ومافى الورى عبد جنى كجنايتى !
أتحرقنى بالنار ، ياغاية المنى ، ... فأين رجائى ؟ ثم أين مخافتى ؟ !

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه ، فدنوت منه ، فإذا هو « زين العابدين » على ابن الإمام الحسين بن على بن أبى طالب ، فرفعت رأسه فى حجرى ، وبكيت ، فقطرت دمعة من دموعى على خده ، ففتح عينيه وقال : من هذا الذى يهجم علينا ؟ قلت : الأصمعى ... سيدى : ما هذا البكاء وهذا الجزع وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ؟ أليس الله تعالى يقول : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ؟

فقال : هيهات هيهات يا أصمعى ... إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً ...

أليس الله تعالى يقول : « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » ؟

* * *

هؤلاء قوم بحثوا فى القرآن بعقولهم ، واستمدوا نور المعرفة من صفاء قلوبهم ... لم يتواكلوا ولم يتخاذلوا ، بل عملوا وجدوا ، وأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ، حيث لا أنساب ، ولاينفع مال ولابنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه ؛ ذلك لمن خشى ربه » .

خريجو مدرسة القرآن :

وفى مدرسة القرآن تخرج الأبطال والشهداء الذين كانوا كالبحر ، يغسلون بأمواجهم الطاهرة ماعلق بالدنيا من أقذار وأكدار ... علموا أن العزة فى الجهاد : فجاهدوا ، وأن الشهادة هى أسمى مايتمناه المؤمن . فلم يتخاذلوا ، وقرأوا فى القرآن قوله تبارك وتعالى : « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله » : فرفعوا رايات الجهاد ترفرف بكلمة التوحيد لينالوا ماعند الله ، وجعلوا من البحر الأبيض والأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان فى أرض الإسلام !

نعم ! لقد شحنوا طاقة روحانية قرآنية نورانية ، جعلتهم يستقبلون ضربات السيوف كأنها قبلات الملائكة .

وهانحن أولاء نعرض نماذج مشرقة من هؤلاء الذين تخرجوا فى مدرسة القرآن ، وتربوا على موائده ، فنالوا الموتة الكريمة ، والشهادة العظيمة .

إن الاستشهاد فى سبيل الله أعظم وسام للشرف ، لايتقلده إلا ذوعقيدة سليمة ، وإيمان قوى ، وإخلاص صادق لله تعالى ؛ ولهذا أحاط الله الشهيد بعناية خاصة فى دنياه وأخراه ، وفى نفسه وأهله ، وعوضه بدنياه الفانية : حياة الخلود والبقاء . .

منـــازل الشهداء

والقصة الآتية توضح لنا مكانة الشهيد عند الله تعالى :

أخرج ابن ماجة فى سننه ، والترمذى فى جامعه ، عن جابر رضى الله عنه قال : (لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياجابر : مالى أراك منكساً مهتما ؟ فقلت يارسول الله استشهد أبى وترك عيالا وعليه دين فقال : ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل به أباك ؟ قلت : بلى يارسول الله ؛ قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً ، وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب ؛ فقال له : ياعبدى : تمن أعطك ؛ قال : يارب تردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ؛ فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم إليها لايرجعون ، قال : يارب فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله عزوجل : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون » .

فى هذا المشهد الرائع ، تصور لنا السنة المطهرة : المنزلة الجليلة التى أعدها الله تعالى للشهداء ... أولئك الذين ضحوا بأرواحهم وأنفسهم فى سبيل الله تعالى ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون .

وقد صور لنا هذا الموقف ، لقاء الله تعالى للشهيد ، وكيف أنه يحييه بعد موته ، بل وأعظم من ذلك : يكلمه الله بنفسه مشافهة !

إنها — إذن — المنزلة عالية ، حظى بها أبو جابر رضى الله عنه ، وإنها — كذلك — لمكانة عالية للشهيد ، دونها كل مكانة ، وإن السعادة الغامرة التى ينعم بها فى جنة الله لاتعادلها سعادة ، لدرجة أن الشهيد بعد أن يرى مكانته هذه : لايتمنى شيئاً إلا أن يعود إلى الدنيا ، كى يقتل ثانية فى سبيل الله ... ذلك ؛ لما يرى من الكرامة والفضل ، والمثوبة والأجر !

* * *

إن الشهيد فى غاية الفرح والسرور بما آتاه الله إياه ، وإن مكانته العظيمة لتوحى لنا بالثمن الغالى الذى اشترى الله به أنفس المؤمنين وأموالهم : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

والصورة التى تصاحب الشهادة أثناء القتل فى سبيل الله . كريمة المظهر ، طيبة الأثر ، لها رائحة المسك ؛ لأن روح صاحبها أصبحت تحلق فى الجنة ، ولأن كرامة الحق لاحقت صاحبها بالتكريم والتعظيم .

فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله ، إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى : اللون : لون الدم ، والريح : ريح المسك) .

ويشبه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المجاهد : بأنه فى عبادة دائمة ... مثله كمثل الصائم القائم ، فإذا ما انتهى به جهاده إلى الشهادة فى سبيل الله : فهو فى الجنة ؛ أما إذا رجع سالماً : فله من الله الأجر والغنيمة ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (القائم مثل المجاهد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن جاهد فى سبيله ، كمثل الصائم القائم ، وتكفل الله للمجاهد فى سبيله أن يتوفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه سالماً مع أجر أوغنيمة) .

ولما كان للشهيد هذه المنزلة العظيمة : فهو يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ، ليعيد بذل الجهاد فى سبيل الله مرة أخرى ، وليحظى بفضل الشهادة ... قال صلى الله عليه وسلم : (ما من عبد يموت له عند الله خير ليسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا ومافيها ، إلا الشهيد ، لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه ليسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى) .

لهذا ، نرى أمثلة البطولة والفداء والتضحية والجهاد فى سلفنا الصالح ، تأخذ مكانها على صعيد الحياة الكريمة ، فتراهم يتسابقون فى بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، لايهابون الموت ، ولايخافون الهلاك ؛ لأن الإيمان الذى عمر قلوبهم : جعلهم ينظرون إلى آجالهم نظرة ثقة ، ولأن الأجل واحد ، وأن الجهاد لايقصر العمر ، وأن النكوص عنه لايطيل العمر ... قال تعالى « فإذا جاء أجلهم : لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » . من

أجل ذلك : عاهدوا الله ورسوله ، وصدقوا فى وعدهم ، وقدموا من أمثلة الفداء مايعتز به الإسلام .

الفدائيون فى الإسلام :

عن أنس رضى الله عنه فيما يرويه البخارى ومسلم : (غاب عمى أنس ابن النضر رضى الله عنه عن قتال بدر ، فقال يارسول الله : رغبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد ، انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — ، وأبرأ إليك مماصنع هؤلاء — يعنى المشركين — ، ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال له : إلى أين يا أنس ؟ قال : ياسعد ، الجنة ورب النضر ، إنى أجد ريحها من دون أحد ؛ قال سعد : فما استطعت يارسول الله ماصنع ، قال أنس بن مالك : (راوى الحديث) فوجدنا به بضعاً وثمانين ، مابين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته : عرفته ببنانه — أى أصابعه — ؛ قال أنس بن مالك : كنا نرى — أو نظن — أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه : فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا * ليجزى الله الصادقين بصدقهم) .

التنافس على الجهـــاد :

ولقد ترك لنا الشهداء نوراً يبصرنا الطريق الأمثل للانتصار على الأعداء ... فلقد كان الأبناء يسابقون الآباء على الفوز بالشهادة ... فهذا

أبو خيثمة الحارثى يقول لولده سعد بن خيثمة يوم بدر : لتبق ياولدى مع إخوتك وأن أذهب إلى الجهاد فى بدر ؛ فيقول له ولده : والله يا أبى لو لم تكن الجنة : لآثرتك على نفسى ... فاقترعا على من يذهب للجهاد فى سبيل الله ! فأصابت القرعة ولده ، فشارك فى شرف الجهاد ، واستشهد فلما كانت غزوة أحد : ذهب أبو خيثمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت والله حريصاً عليها ، حتى ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج فى القرعة سهمه ، فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابنى فى المنام فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها يقول : إلحق بنا : ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ماوعدنى ربى حقاً ؛ ثم قال : وقد أصبحت يارسول الله مشتاقاً إلى مرافقته وقد كبرت سنى ، ورق عظمى ، وأحببت لقاء ربى ، فادع الله يارسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة ولدى فى الجنة . فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وقتل بأحد شهيداً) .

وهذا العلامة ابن هشام يحدثنا فى سيرته فيقول فى يوم أحد : (لما التقى حنظلة بن أبى عامر بأبى سفيان ، واستعلى حنظلة أبا سفيان بسيفه : رآه شداد ابن الأسود ، فضرب شداد حنظلة ، فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن صاحبكم لتغسله الملائكة فى طست من ذهب بماء المزن الطاهر من فوق سبعة أرفعة ؛ فسأل بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة حنظلة عن شأنه ، فقالت : خرج وهو جنب حينما سمع الداعى يدعو إلى الجهاد) !!

* * *

إن الرسول صلى الله عليه وسلم سمى حنظلة — رضى الله عنه — غسيل الملائكة : أى الرجل الذى غسلته الملائكة الكرام .

لقد بلغ من حرصه على الجهاد ومحافظته على كل لحظة يمضيها ، أنه لم يكمل رفع الجنابة ، فخر فى الميدان شهيداً ، وأراد ربك تكريمه ، فأمر الملائكة بتغسيله ! !

لله درك ياحنظلة ، وطيب الله ثراك ، وصلى الله وسلم على النبى الذى رباك ! !

وهذا نعيم بن مالك يقول : (يانبى الله لاتحرمنا الجنة — وذلك قبل نشوب القتال — فو الذى نفسى بيده لأدخلنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بم ؟ قال نعيم : لأنى أحب الله ورسوله ، ولاأفر يوم الزحف فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . واستشهد يومئذ) .

نمـــاذج مشرفة :

وإن السنة المطهرة لمليئة بالشهداء الأبرار الذين سبقونا على طريق الهدى والرشاد ، والتوفيق والجهاد فى سبيل الله ، ودفعوا حياتهم وهم مبتهجون وعن عملهم راضون :

يروى الطبرانى بإسناد حسن أنه لما قتل جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فى غزوة مؤتة : جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والدمع يسبق قوله ؛ وكأنه يقول : أين أبى يارسول الله ؟ فيقول عليه الصلاة والسلام : هنيئاً لك ياعبد الله ! أبوك يطير مع الملائكة فى السماء !)

هذا الشهيد البطل ... الذى يغدو إلى الله مشطوراً نصفين وهو يقول :

ياحبـــذا الجنـــة واقترابهـــا طيبة ، وبارداً شرابها ! !

وما أروع قصص السنة المطهرة فى المقام الجليل ينتظر الشهيد :

فعن سمرة رضى الله عنه فيما يرويه البخارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رأيت الليلة رجلين أتيانى ، فصعدا بى الشجرة ، فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل ، لم أر قط أحسن منها ، قالا : أما هذه الدار : فدار الشهداء) .

لذلك حرص الشهيد على العودة للدنيا حتى ينال شرف الشهادة مرات مخالفاً بذلك سنة من دخل الجنة ممن مات .

فعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وإن له ما على الأرض من شىء . إلا الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة) وفى رواية : (لما يرى من الشهادة) .

(رواه البخارى ومسلم والترمذى)

° ° °

ما أحوج هذه الأمة إلى نماذج من هذه البطولات ، حتى تفوز بالنصر على الأعداء ، فإن النصر لاينال بالتمنى ، إنما ببناء النفوس ، وتشييد البنيان على أساس من الإيمان المطلق الذى لاحدود له .

ورضى الله عن أبى بكر الصديق حيث يقول : (احرص على الموت ، توهب لك الحياة !) .

إنها كلمة حق قالها الصديق ، الذى لو وزن إيمانه بإيمان الأمة : لرجح إيمانه ، والذى وقف على بن أبى طالب يرثيه بهذه الكلمات الفياضة بنور الإيمان وجلال العظمة . . .

قال على كرم الله وجهه فى رثاء الصديق أبى بكر :

رحمك الله يا أبا بكر ، فكنت — والله — أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدى به من أهله ... فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً : صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وقمت معه حين قعدوا ، وواسيته حين بخلوا ، وسماك الله فى كتابه صديقاً ، فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به : أولئك هم المتقون » ، يريد محمداً ويريدك . . .

كنت كالجبل ، لاتحركه العواصف ، ولاتزيله القواصف...

كنت ضعيفاً فى بدنك ، كبيراً عند المؤمنين ، جليلا عند الله ... فجزاك الله عن الإسلام خيراً .

* * *

أخا الإســـلام :

خبرنى بربك فى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟ لقد تخرجوا فى مدرسة القرآن العظيم ، التى جعلت منهم قادة للأمم وسادة للبشر ... تخرج فيها المصلح العظيم : كأبى بكر : والزعيم الملهم : كعمر ، والحى الكريم : كعائشة ؛ والمفتى الخبير : كابن عباس : والزاهد المخلص : كأبى ذر ؛ والقائد الجبار : كخالد ؛ والفقيه البحر : كابن مسعود ؛ والفيلسوف البارع : كسلمان .

* * *

لمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وعلى طريق هؤلاء فليسلك السالكون .

رضى الله عنهم ورضوا عنه ... أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

* * *

القرآن أمان من الفزع يوم القيامة

بعد ماتبين لنا الأثر الجليل الذى أحدثه القرآن فى نفوس الصحابة ؛ فإننا نتابع المسيرة المقدسة فى روضات القرآن ، التى تفوح عطراً وعبيراً ، فنأتى على أثر القرآن فى صاحبه يوم القيامة ، وكيف أنه أمان له يوم الفزع الأكبر :

عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاثة لايهولهم الفزع الأكبر ، ولا يناهم الحساب ، هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله ، وأم به قوماً وهم راضون ، وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله ، وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين مواليه) .

(رواه الطبرانى فى الأوسط ، والصغير بإسناد لابأس به)

وإذا كان القرآن الكريم يجعل صاحبه أحد ثلاثة لايفزعون يوم يفزع الناس : فإنه أحد اثنين يشفعان للعبد يوم القيامة ، وتقبل شفاعتهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد ؛ يقول الصيام : رب إنى منعته الطعام والشراب بالنهار ، فشفعنى فيه ؛ ويقول القرآن : رب منعته النوم بالليل ، فشفعنى فيه ، فيشفعان) .

(صحيح على شرط مسلم)

ولاتنس يا أخى أن القرآن فى جوف صاحبه : مسك ، طيب الرائحة ، بل إنه يجعل صاحبه كأنما أدرجت النبوة بين جنبيه .

بهذا نطق الحديث الشريف ؛ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً ، وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم ما استقرأ كل رجل منهم — يعنى مامعه من القرآن — فأتى على رجل من أحدثهم سناً ، فقال مامعك يافلان ؟ قال : معى كذا وكذا ، وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم ، قال ، اذهب فأنت أميرهم ، فقال رجل من أشرافهم : والله مامنعنى أن أتعلم « البقرة » إلا خشية أن لا أقوم بها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموا القرآن واقرأوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه : كمثل جراب أوكى على مسك) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن .

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قرأ القرآن ، فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لايوحى إليه) .

وصدق رب العزة حيث يقول :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »

وجوب التدبر عند تلاوة القرآن :

لقد كان السيد الجليل محمد صلى الله عليه وسلم يوصى أصحابه رضى الله عليهم إذا قرأوا القرآن أن يقفوا عند عجائبه ، ويحركوا به القلوب ...

فإن من قرأ القرآن بلسانه وبين اللسان والقلب حجاب ، أو سمعه بأذنه وبين أذنه وفؤاده سور له باب : فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ؛ إنما القراءة الصحيحة : هى التى يشعر العبد فيها بأنه يناجى ربه ويكلمه ، وليس قراءة بتراء تلوكها الألسنة ، وتتحرك بها الشفاه .

وهانحن أولاء نقف أمام هذا الصحابى الجليل أسيد بن خضير ، لنستمع إلى ذلك الوصف العظيم لقراءته كتاب الله تعالى ، ماذا حدث لفرسه وهو يقرأ القرآن ، وماذا رأى ؟ وبماذا أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

يا أخا الإسلام :

قف خاشعاً أمام هذا الحديث ، واجعل من هذا الصحابى أسوة حسنة ، وقدوة طيبة .

(عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن خضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده « « فى المكان الذى يجفف فيه التمر » إذ جالت فرسه « اضطربت اضطراباً شديداً » فقرأ ، ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أخرى أيضاً ، فقال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى « إبنه : خاف أن تمشى عليه بأضلافها » ، فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى ، فيها أمثال السرج عرجت فى الجو ، حتى ما أراها ، قال : فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يارسول الله : بينما أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ ابن حضير ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ بن حضير ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضاً ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ بن حضير ، قال : فانصرفت ، وكان « يحيى » قريباً منها ، خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة ، فيها أمثال السرج ، عرجت فى الجو حتى ما أراها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت : لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم !)
(رواه البخارى ومسلم)

هذا جلال القرآن ، وعظمته ، وجماله ، وكماله .

أليس هذا الكتاب العزيز هو الذى قال فيه رب العالمين : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعل ربهم يتوكلون » ! !

أليس هذا هو الكتاب الكريم الذى قال فيه رب العالمين : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تاين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » ؟ !

رحم الله أولئك الذين كانوا يقرأون القرآن ويسمع لهم به دوى كدوى النحل . . . نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء كتابه ، كلما مر أحدهم بآية تبشر بالجنة : بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار : شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ! ! .

إنه كلام الله رب العالمين : « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

القرآن طب النفوس

القرآن العظيم : طب النفوس ودواؤها ، وعافية الأبدان وشفاؤها ، ونور الأبصار وضياؤها : « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » . « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

من الحقائق الثابتة أن الأمراض النفسية وما لها من تأثير وخيم وعواقب سيئة ، إنما يكون منشؤها القلق والاضطراب والانفعالات والغضب ، وهذه الأمراض كثيراً ما تكون سبباً فى الأمراض العضوية الخطيرة ...

ولقد عالج القرآن الكريم هذه الأمراض ، وبين طريق الوقاية منها ، فركز على الإيمان بالقدر : خيره وشره ، والتسليم لله فى كل ما يبتلى به العبد . . . فمن ذلك قوله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، وقوله جل شأنه : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » .

وهكذا يتدرج القرآن مع العبد شيئاً فشيئاً حتى يبلغ به أعلى قمم المعرفة ، وأرفع ذرى الاعتقاد فى الله ، فيقف أمام أحداث الأيام صامداً ثابتاً ثبات الشم الرواسى ، والجبال الشوامخ ، لا تحركه القواصف ، ولا تؤثر فيه أشد العواصف .

* * *

وفى قراءتنا ، وجدت أن من الأهمية البالغة — ونحن بصدد الكلام عن الأمراض النفسية وعلاج القرآن لها — : رأيت أن أسجل مقالا يعتبر بحثاً علمياً لطبيب مسلم . . .

يقول فى هذا المقال تحت عنوان : « الإسلام والصحة النفسية » ما نصه :

« من بديع صنع الله فى الإنسان : ما أودع فيه من القوى النفسية والجسدية ، التى كانت مثار تفكير الباحثين من بدء الخليقة حتى يومنا هذا : كيف يفكر هذا الإنسان ؟ وكيف يتحرك ؟ وكيف ينمو ؟ وكيف يمرض ؟ وكيف يصح ؟ .

ومهما وصل العلم من الكشف عن الأسرار الإلهية فى هذا المخلوق العجيب : فإنه سيظل إلى أن تقوم الساعة محكوماً بهذه الآية الشريفة : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ؛ ومن هذا القليل الذى آتاه الله لخلقه : ما تحدث فيه علماء النفس عن الآثار الجسدية للأمراض النفسية . . فلقد كان من الطبيعى فى الإنسان — وقد امتزجت فيه القوى النفسية بالجسدية أتم الامتزاج — أن يتأثر جسمه بنفسه ، والعكس ؛ فكلما كان هادىء النفس مسروراً : بدت على جسمه آثار النشاط والقوة ، وإذا ما حزن أو غضب : ارتسمت على بدنه مظاهر الضعف والاضطراب

ويسمى علماء النفس المحدثون هذا الفن الذى يبحث فى الأمراض الجسدية الناشئة عن الحالات النفسية : بالطب « السيكوسوماتى » — أى الطب النفسى الجسمى — ولا نستطيع أن ندعى استئثار الطب الحديث بمعرفة ذلك .

وقد تنبهت إليه الخليقة من قديم الأزمان : فأفلاطون ينكر على أطباء عصره معالجة أمراض الجسد دون العقل وهما ممتزجان فيقول :

« إن أكبر أخطاء الأطباء أنهم يحاولون علاج الجسد دون العقل ، فى حين أن العقل والجسد : وجهان لشىء واحد ، فلا ينبغى أن يعالج أحد الوجهين على حدة » . والطبيب ابن العباس المتوفى سنة ٣٨٤ هـ يقول فى كتابه « كامل الصناعة الطبية » : إنه يوصى الإنسان بالابتعاد عن الهم والغم والغضب والحسد والفكر الحزين، لما يؤدى إليه ذلك من الأمراض الجسمية الفتاكة . . . ومن عبارته فى ذلك : « فأما الأمراض النفسانية ، فإنه ينبغى ألا يدمن الإنسان على الغم ، ولا يستعمل الغضب، ولا يكثر من الهم والفكر، ولا يستعمل الحسد، فإن ذلك كله مما يغير مزاج البدن ، ويعين على إنهاكه ، وضعف الحرارة الغريزية فيه ... ومن كان مزاجه حاداً : فإن هذه الأعراض تولد الحميات الرديئة ، بمنزلة حمى الدق ، وقرحة السل ، وما يجرى هذا المجرى . . . فلذلك ينبغى أن يتجنب الإنسان الأعراض النفسانية كلها ؛ وأن يلهم نفسه الفرح والسرور ، فإنه يقوى الحرارة الغريزية ، ويحركها إلى ظاهر البدن ، ويزيد فى النشاط ، ويقوى النفس .

ويأتى من بعد ذلك حجة الإسلام « أبو حامد الغزالى » ليفيض الحديث بكل دقة ووضوح عن كثير من الانفعالات النفسية ، وما تؤدى إليه من أضرار جسمية ، فيقول عن انفعال الغضب : « فإذا اشتد اضطرام نار الغضب : أعمى صاحبه ، وتصاعد من شدة غليان الدم دخان مظلم إلى الدماغ ، وانتشر الدم الحقيق فى العروق ، وارتفع إلى أعالى البدن ، كما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر . . . كذلك ينصب إلى الوجه ، فيحمر الوجه وتحمر العينين .

وفى حالة الغضب الشديد : تفنى نار الغضب : الرطوبة الجلدية ، التى بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظاً » !

ومرة أخرى يذكر أن من الآثار الجسدية للانفعال الغضبى : « تغيير اللون ، وشدة الرعدة ، فى الأطراف ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الحدق ، وتنقلب المناخر ، وتستميل الخلقة » .

ويقول عن انفعال الخوف : « وقد تصل الآثار الجسدية الداخلية لانفعال الخوف : إلى الحد الذى تنشق منه المرائر ، فيفضى إلى الموت ».

وشاع بين الناس — من قديم — ما يفعله القلق والحزن وسائر الانفعالات العنيفة بالجسم : من ضعف أو مرض . . .

ويتحدث العامة عن « فلان » الذى أصيب بالشلل من جراء كارثة مفاجئة ، و « فلان » الذى فقد بصره نتيجة الإدمان على الحزن ، وذلك الذى ابيض شعره عقب الخوف الشديد . . . وهكذا .

وقبل أن يطلق المحدثون اسم الطب « السيكوسوماتى » : كان الشعراء ينظمون الكثير من مسلمات هذا الفن فى قصائدهم ، فيتلقاها الناس عنهم بالتسليم ، لأنها أصبحت من البداهة بمكان ...

فهذا شاعر ، يصرح بأن الهموم حينما تصيب قوى الجسم الفاره البدن : تبدله من جسامته : نحافة وهزالا . . . وحينما تنزل بالصبى وهو غض الإهاب ، ناضر الوجه ، يتقلب فى ميعة الصبا والجمال : تشيب منه الشعر ، وتحيله هرماً ضعيفاً ، فيقول :

والهم يخـــترم الجسيم نحافـة ويشيب ناصية الصبى ويهرم

وشاعر آخر ، يوضح لنا أن الأيام التى تطول على صاحبها : فيمل منها ويضجر ، لما تحمله من آلام متصلة ، وأهوال متعاقبة . . وأن الهموم التى تتدفق على القلب بما لا طاقة له به ، والتى اتسعت عن أن تجد لها بين حنايا الضلوع مكانا ومستقرا . . . كل تلك الآلام والهموم لا تمر على صاحبها مر الكرام ، بل تترك أثرها الواضح فى صورة الشيب الذى يجر وراءه ما يجر من الضعف والهزال ، فيقول :

حامت على نفسى الهموم كأنها وكأنهن فريسة وصـقور ! !
ياليل : أين النور ، إنى تائـه هل تنقضى ، أم ليس بعدك نور ؟ !

والحق يقال : إن الطب النفسى الجسمى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين : قد غفا غفوة يعرفها كل من يقرأ مراجعه فى تلك الحقبة ، فلا يجد فيها مثل عناية الأقدمين بهذا اللون . . . اللهم إلا إشارات عابرة ، لا تعدو بعض الظواهر النفسية وتعليلها ؛ أما العناية بعلاجها : فلم يبلغ مبلغاً يعتبر امتداداً لهذا التراث الضخم الذى خلفه لنا السابقون .

وحينما كان الطبيب يتصدى لعلاج الجسم الذى تهاوى بسبب المرض النفسى : لم يكن يعطى صاحبه أكثر من العقاقير المسكنة . . وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على الجمود والعقم الذى أصيب به هذا اللون من البحث فى هذه الفترة من الزمان .

وكما يكون البعث بعد الموت من أقوى مظاهر الحياة : رأينا ذلك

اللون من الطب يعود بشباب جديد حاملا اسم الطب « السيكوسوماتى ، الذى خصصت له جامعات الغرب أقساماً ، وجندت له من الإمكانيات ما جندت ، وفتحت له عيادات الطب النفسانى . . . ثم انتشر ذلك فى كثير من دول العالم المتطورة ، وظهرت فيه المؤلفات والنشرات الدورية ، وتخصصت فيه المجلات العلمية ، وأصبحت أبحاثه نامية متطورة تسابق الزمان ، وتجارى تطور العصر فى الأبحاث النووية والالكترونيات ، وأبحاث الفضاء .

وقد كشف لنا الطب « السيكوسوماتى »عن كثير من الأمراض الجسمية التى تحدثها الانفعالات النفسية : — كالقلق ، والخوف ، والبغضاء ، والحقد ، والهم ، والكبت ، والشك ، والغيرة : — فأثبت أن الحزن الشديد — وخاصة المفاجىء — يتسبب فى تصلب الشرايين ، والجلطة الدموية ، والشلل ، وأمراض الدم : من الضغط ، والسكر ، وغيرها . . .

بل وأثبت أن الأزمات النفسية الشديدة تحول العصارات الهاضمة إلى سموم ، فلا تستفيد المعدة من أغنى الأطعمة بالمواد الغذائية ، فضلا عن أن هذه العصارات تحول كل ما فى المعدة إلى مزيج من المواد السامة ، التى يضر بقاؤها بالجسم ضرراً بليغاً . .

بل إن هذه العصارات السامة : تفتت جير الأسنان ، وتزلزلها من مكانها ، فإذا بفلان قد سقطت أسنانه فجأة ، إثر كارثة داهمة ، أو هم وغم شديدين .

ويحدثنا « الدكتور يوسف مراد » بأن الأمراض النفسية تؤدى إلى إحداث قرحة المعدة ، وقرحة الأمعاء ، وارتفاع ضغط الدم الجوهرى ، والربو ، وفقد شهوة الطعام ، وبعض حالات الإمساك والإسهال ، وحالات الاستهداف للطفحات الانخرية ، ومرض العيون المعروف بـ « الجلوكوما » — أى الماء الأزرق — ومجموعات الأمراض الخاصة بالقلب ، والجهاز البولى ، والتناسلى .

وهذه النتائج التى توصل إليها « الدكتور مراد » وسائر علماء النفس من العرب : تلتقى مع ما قرره الأطباء والمختصون الأجانب .

فالدكتور « جوبر » يذكر من الأمراض الجسمية التى تنشأ عن الأمراض النفسية : عصر الهضم العصبى ، وقرحة المعدة ، واضطربات القلب ، والأرق والصداع ، وبعض أنواع الشلل . . . كما قرر أن القلق يجعل العصارات الهاضمة تتحول إلى عصارات سامة ، تؤدى — فى كثير من الأحيان — إلى قرحة المعدة . .

وقرر مثل ذلك : الدكتور « هارولد سين هابين » و « س الفاريز » ، و « ديل كارينجى » و « الكسيس كاريل » .

موقف الإسلام من الطب النفسى :

وبعد : فما هو موقف الإسلام من هذا النوع الهام فى الطب . . . ؟

إنه — كدأبه إزاء الأبحاث العلمية — يحث عليها ، ويدفع المسلم إلى البحث فيها ؛ لأنه يعتبره مسئولا عن تطوير الحياة فى كل الميادين ، بما لا يخالف نصاً فى الكتاب والسنة . . .

وقد حثنا الله سبحانه وتعالى على البحث فى النفس بقوله : « وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » .

وليس ذلك محدوداً بعصر دون عصر ، ولا مقصوراً على مجال دون مجال ، بل يشمل البحث عن النفس فى أمراضها ، والوقاية منها ، وعلاجها ، وهدايتها ، وإرشادها ، والسمو بها إلى أوج الرفعة والكمال.

ولم يكتف الإسلام بهذا الحث على البحث فى النفس ، بل وردت عبارات صريحة فى الكتاب والسنة ، تبين العلاقة بين المرض النفسى والجسمى حينا ، وتضع العلاج حينا آخر . . .

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن ما ورد فى الكتاب والسنة من علاج للنفس : هو أغزر وأعمق وأصح من كل ما ورد فى أبحاث علماء النفس من بدء الخليقة حتى يومنا هذا .

وسنجتزىء من هذا البحر الخضم بقطرة حسب ما يتسع له المقام :

فقد جاء القرآن الكريم يوضح لنا العلاقة بين الحالة النفسية والمرض الجسمى فيذكر عن يعقوب عليه السلام أنه لما فقد ابنه يوسف عليه السلام ، حزن حزناً شديداً ، حتى فقد بصره ، فقال تعالى : « وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ، ولما أن جاءته البشرى بولده ، وفرح الفرح الشديد ، أبصر فى الحال قال تعالى : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » .

وفى آية أخرى يصور لنا القرآن الكريم يوم القيامة فى شدة أهواله ، وما تفعله بالنفس البشرية من رعب وفزع ، يتأثر بهما جسم الوليد

الصغير ، فيشيب قبل أوان الشيب فيقول . « فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً » ؟ .

ثم يصور أيضاً هذا الخوف الشديد الناشىء من الأهوال والشدائد والآثار التى تترتب عليه فى الجسم فيقول : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » ! .

فهذا الخوف ، الذى يذهل الأم عن رضيعها — وهو أعز ما يكون لديها ، حتى لتفديه بروحها ، وتقف دونه تحميه من كل شر وضر — كيف أن هذه الوالدة تفقد رشدها ، وتصاب بحالة من الذهول الذى ينسيها كل شىء ، حتى ... وليدها الصغير ؟ ! ! .

وكيف أن هذا الخوف الشديد يؤثر على الحامل ، فتلقى بحملها فى غير أوان الوضع ، وكيف أنه يصيب الناس كلهم بحالة تشبه السكر ، وما هى بسكر حقيقى ، ولكنه الفزع والهلع وشدة العذاب : أفقدهم صوابهم ، وشل فكرهم وعقلهم ؟ !

وجاء وصف الرسول صلى الله عليه وسلم للغضبان بما يوضح الأثر الجسمى لذلك الانفعال أدق توضيح : من حمرة فى العينين ، والوجه ، وانتفاخ فى الأوداج ، وتغيير للهيئة . . .

وإذا كان هذا هو الأثر الجسمى المرئى : فهناك آثار أخرى للغضب تظهر فى تصرفات الغضبان : كهدم الفهم والتعقل ، حتى ليبلغ الغاضب فى تصرفه أحياناً مبلغ المجنون الذى لا يدرى ما يأتى وما يذر .

من أجل ذلك ، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحكم بين الناس فى حالة الغضب فقال : « لا يقض القاضى حين يقضى وهو غضبان » .

عـــلاج الغضب :

ومن العلاج الذى جاءت به السنة المطهرة لحالة الغضب : أن يغير الغاضب من وضعه : فإن كان قائماً : قعد ، وإن كان جالساً : اتكأ ، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .

قال صلى الله عليه وسلم : (إن الغضب جمرة توقد فى القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه ، وحمرة عينيه ؟ فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً ، فإن كان قائماً : فليجلس ، وإن كان جالساً : فليقم — أو كما يقول صلى الله عليه وسلم — فإن لم يزل ذلك من نفسه : فليتوضأ بالماء البارد ، أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء) .

ومن العلاج العملى ، الذى مارسه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه : قصة أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه ...

فقد روى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (دخل المسجد ذات يوم ، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له : أبو أمامة : فقال يا أباأمامة : مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت الصلاة ؟ فقال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ، قال : أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك ؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال : (قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من

الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) ، قال : ففعلت ، فأذهب الله همى ، وقضى دينى) ! !

صدقت يا سيدى يارسول الله !

فأبو أمامة حينما ركبه الدين : حزن واغتم ، وأقعده الهم فى المسجد لا يبرحه ، منطوياً على نفسه ، معتزلا للناس ، تاركاً الخوض فى غمار الحياة . . .

ولا شك أن العزلة ، وما صاحبها من هم وحزن : من الحالات النفسية التى تترك أثرها السيىء فى الجسم ، من الكآبة والانقباض وهزال الجسم وضعفه ، فكان العلاج لذلك : أن سقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جرعة من الأمل والعزم والنشاط ؛ أوصلته بالقوة العليا ، التى لا يخيب من توجه إليها ، ولا ييأس من ناجاها ، ولا يحزن من لجأ إليها .

ذلك اللجوء إلى الله — وهو القادر على كل شيء — يعطى المؤمن . المزيد من الثقة ، والرجاء فى الله ، حتى يوقن أن الله سينجده وينتشله مما تردى فيه .

وهذا الإحساس وذلك الشعور الذى وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفس أبى أمامة : كان كفيلا بأن يجعله ينطلق إلى الحياة من جديد ، وكله أمل وثقة وعزم على العمل والكفاح ! !

ويشبه هذا ، ما حدث لأنس بن مالك رضى الله عنه ، فقد طرأت عليه حالة من الحزن والتفكير الذى لازمه فترة طويلة ، حتى شف

جسمه ، ونحل بدنه ، وعافت نفسه الطعام والشراب ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ؛ فاكتشف ذلك : الطبيب النفسانى الكبير محمد صلى الله عليه وسلم ، فسأله : ما بالك ؟ فقال : يارسول الله نظرت فى حالى وقلت : أنا الآن لا أطيق فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكيف يكون حالى والرسول يوماً ما سيترك الدنيا ، فأحرم من ملازمته والتمتع برؤيته ، وفى الآخرة سيكون فى منزلة لا أصل إليها إن دخلت النار ، ولا أسمو إليها إن دخلت الجنة ! فعلمت أننى مقضى على بالحرمان النهائى من حبيبى وقرة عينى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! !) فبشره الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون معه ،فى الجنة ، وأيضاً فى درجته ، لأنه يحبه ، وقال له : (يحشر المرء مع من يحب) ؛ فهدأت نفسه ، وخرج من الحزن إلى الفرح والسرور ، والطمأنينة والاستقرار ، وعاد إليه نشاطه وقوة نفسه ، كأحسن ما كان فى حياته .

علاج النفس بالتـــوبة :

وعلماء النفس يعالجون « العقدة » : بطريق التحليل النفسى ، الذى يجلس فيه المريض إلى الطبيب ؛ ويفضى إليه بذات نفسه ، ويعترف بأخطائه وكل ما لقيه فى حياته . .

وقد يكذب المريض فى سرد أحواله ، وقد يعجز الطبيب عن بث الطمأنينة والراحة النفسية فى قلبه .

ولكن الإسلام شرع لنا التوبة ، وهى اعتراف صادق من العبد لربه بالأخطاء والذنوب . . . ووثوق التائب بعفو الله ومغفرته : يريح نفسه ، ويسكب عليها السكينة والاطمئنان : فتهدأ نفسه ، وتزول عقده .

وإذا كانت الأمراض النفسية كثيراً ما تنشأ عن القلق والخوف والبغضاء والحقد والكبت والشك والغيرة : فإن الإسلام هو الدين الذى يعالج ما أصاب المرء من ذلك ، بل ويقيه من التردى فى هـذه الآفات ، إن هو اتبع هداه :

راحة النفس فى هدى الإسلام :

فمن هدى الإسلام : الرضاء بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره ، والاطمئنان والثقة بوعد الله ، والاعتقاد بأن ما أصاب المسلم لم يكن ليخطئه ؛ وما أخطأه لم يكن ليصيبه ... فأنى يجد القلق والخوف والهم السبيل إلى نفسه ؟ وكيف يتمكن الحقد من قلبه ، وهو لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها ؟

وبممارسته لألوان العبادات ، واتصاله الدائم بالله : لا تتعقد نفسه ، ولا تضطرب أعصابه . . .

وهذه حقيقة اعترف بها علماء النفس الأجانب أنفسهم ، فقد قال الدكتور « بريل » : إن المرء المتدين حقاً : لا يعانى — قط — مرضاً نفسياً .

وقال « ديل كارنيجى » : إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمساك بالدين : كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبى ، وأن يشفيا هذه الأمراض .

الصلاة علاج للأمراض كلها :

ولقد كان الرسول صلوات ربى وسلامه عليه إذا حزبه أمر : فزع

إلى الصلاة ؛ لأن فيها مناجاة للرب وخشوع بين يديه ، وفيها ينخلع المرء من الدنيا ؛ ويسبح فى فيض سماوى من الصفاء والجلال والجمال ، يعود بعده مطمئن القلب ، ساكن النفس . . .

ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (وجعلت قرة عينى فى الصلاة) ، وكان إذا حان وقتها : استقبلها بشغف ولهفة ... لأن فيها الراحة الكبرى ، والسعادة العظمى . . . وكان يقول لمؤذنه : (أرحنا بها يابلال) !

فهى ، إذن : خير علاج من كافة الأمراض العصبية ، ولذلك اعترف بفضلها كبار المتخصصين فى الدراسات النفسية .

قال : « الكسيس كاريل » :

« لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا ، وقد رأيت — بوصفى طبيباً — كثيراً من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً : تدخلت الصلاة ، فأبرأتهم من علتهم ...

إن الصلاة : كمعدن الراديوم : مصدر للإشعاع ، ومولد ذاتى للنشاط .

وبالصلاة : يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود ، حين يخاطبون القوة التى لا يفنى نشاطها ...

إننا نربط أنفسنا — حين نصلى — بالقوة العظمى التى تهيمن على

الكون ، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين به على معاناة الحياة ... بل إن الضراعة وحدها : كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن نجد أحداً تضرع إلى الله إلا عادت عليه هذه الضراعة بأحسن النتائج .

ومن أجمل ما فى الإسلام : أنه يربط المسلم بالقوة العظمى المسيطرة على هذا الكون ، فلا يعتريه قلق ولا هم ولا حزن ولا تعقيد ؛ لأنه سما عن كل ذلك حينما توجه إلى هذه القوة بروحه ، وجسمه ، وإحساسه ، ومشاعره ... فهو دائماً يذكر الله ، ويصبح ويمسى على صلاة ، ويحب فى الله ، ويبغض فى الله ، ويعمل امتثالا لأمر الله ، ويأكل متمتعاً بنعم الله ، ويتزوج ، وينجب : استدامة للخلافة عن الله ؛ وشعاره : ذلك الدستور العظيم فى قوله تعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ، ومماتى ، لله رب العالمين » ... انتهى كلامه .

وبعد : فيا أيها الأخ الكريم :

اعلم بأن الدنيا لا تساوى أن تكون حزيناً عليها ، ولا يهولنك ما يعتريك من بلاء وابتلاء ، فإن الله تعالى يقول ، وقوله الحق :

« فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » .

ويقول حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم : (لن يغلب عسر يسرين) .

يا أخا الإسلام :

إذا ضاقت بك الدنيـــــا ففكر فى « ألم نشرح »

فعسر بـــــين يسريـــن مـــتى تذكرهما تفرح !

القرآن غذاء الروح

بعد ما بينا هدى الإسلام فى علاجه الهادىء للانفعالات والتيارات النفسية الصاخبة : كان علينا أن نعرض لدور القرآن فى غذاء الأرواح .

وأشهد أن « هذا الكتاب العزيز » جليس لا يمل حديثه ، سيما فى أوقات الشدائد ، عندما تستشعر النفس أن الأرض قد ضاقت بما رحبت .

فإن من اتخذ القرآن الكريم ورداً ومنهلا : يشعر أن ضيق الأرض قد تحول إلى سعة ، وأن ألم النفس قد استنار برضا الله .

لذا قال صلوات الله وسلامه عليه : (إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ؛ إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد . أتلوه ، فإن الله يؤجركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقوم آلم : حرف ، ولكن : ألف : حرف ، ولام : حرف ، وميم : حرف) . (رواه الحاكم)

وكيف لا يكون القرآن الكريم تفريجاً للكروب ، وأهل القرآن : هم أهل الله وخاصته ؟

دليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (إن لله أهلين من الناس ،

قالوا : من هم يارسول الله ؟ قال : أهل القرآن : هم أهل الله وخاصته)
(رواه النسائى وابن ماجه)

وليس فضل القرآن قاصراً على أهله ، بل إن كرمه يشمل والديهم ، إذا كان قارىء القرآن يقرأه ويعلمه ويعمل بما فيه ... قال صلوات الله وسلامه عليه : « من قرأ القرآن وعلمه وعمل به : ألبس والداه يوم القيامة تاجاً من نور ، ضوؤه مثل ضوء الشمس ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن[1] » . (رواه الحاكم)

فضل قارىء القرآن

قال الله تبارك وتعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » .

وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قرأ القرآن فاستظهره ، فأحل حلاله وحرم حرامه : أدخله الله به الجنة ، وشفعه فى عشرة من أهل بيته ، كلهم قد وجبت لهم النار) . رواه ابن ماجه والترمذى . والمراد بقوله : فاستظهره : أى أجاد حفظه ، وأتقن أحكامه .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : من قرأ القرآن : لم يرد إلى

---

(١) والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم (وعلمه وعمل به) أى اتبع أوامره واجتنب نواهيه . والمراد بقوله : ألبس والداه يوم القيامة تاجا: أى اكليلى الفخار على رأسيهما ، يسطع ضوؤهما بأبهج وألمع من ضوء الشمس ، جزاء تحفيظ ولدهما القرآن .

أرذل العمر — أى لم يبلغ كبر الهرم والخرف والضعف ، بل يتكرم الله عليه بنضارة الصحة ، وتمام القوة ، وكمال العقل — وكان يستشهد على ذلك بقوله تعالى : « ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » أى : الذين قرأوا القرآن : (رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد)

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه : (يا أبا ذر : لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله : خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلّم باباً من العلم : يُعمل به ، أو لم يُعمل به : خير لك من أن تصلى ألف ركعة) رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وينبغى للمؤمن أن لا تفوته قراءة القرآن أى ليلة ، بل يحافظ على قراءته كل ليلة :

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قرأ عشر آيات فى ليلة : لم يُكتب من الغافلين) . رواه الحاكم .

وعنه رضى الله عنه أيضاً أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من حافظ على هذه الصلوات المكتوبات : لم يكتب من الغافلين ؛ ومن قرأ فى ليلة مائة آية : كتب من القانتين) .
(رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، والحاكم)

* * *

مدرسة القرآن

بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع كان الذئب الغشوم فيه راعياً ، والخصم العنيد فيه قاضياً ...

مجتمع لا يعرف إلا المنكر ، ولا ينكر إلا المعروف ... كان الفساد فيه ضارباً أطنابه ، فحوله القرآن من عبادة الحجر ، إلى قيادة البشر ..

حوله من مجتمع يشرب الخمر خمس مرات فى اليوم ، إلى مجتمع يحافظ على الصلوات خمس مرات فى اليوم ...

حوله من مجتمع تنشب الحرب بينه على أتفه الأسباب ، وتظل رحاها دائرة عشرات السنين ، إلى مجتمع كان يؤثى لأحدهم بالماء وهو فى شدة الظمإ فيقول : ادفعوه لمن بجوارى ، لعله يكون أشد منى ظمأ ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ! !

حوله من مجتمع يأكل الميتة — إلى مجتمع لا يأكل إلا ما ذكر اسم الله عليه . . .

حوله من مجتمع يسيء الجوار ، إلى مجتمع يحرص على الجار حتى من ريح القدر ، كى لا يؤذيه به .

إذا دخل أحدهم على أهله بفاكهة : فإما أن يدخل بها سراً ، وإما أن يعطى جاره منها ، ولا يترك ولده يخرج بها : فيغيظ بها ولد جاره ! !

ومن ثم : فإن عمر رضى الله عنه كان يقوم بشؤون القضاء فى عهد خلافة الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، وظل عاماً كاملا لم تعرض عليه

قضية واحدة ، فهم عمر بترك القضاء ، فقال له الصديق رضى الله عنه : لم يا عمر ؟ ألأنك لا تتحمل مشقاته ؟ قال عمر رضى الله عنه : كلا يا خليفة رسول الله ، ولكن فيم أقضى ؟ أأقضى بين قوم آمنوا بالله : عرف كل منهم حقه ، فلم يزد عليه ؛ وعلم واجبه فأداه ... إن غاب واحد منهم : افتقدوه ؛ فإن كان مريضاً : عادوه ، وإن كان فى شدة : أعانوه ؛ وإن نزلت به مصيبة : لم يتركوه ... ففيم القضاء بين هؤلاء ! !

* * *

إنه مجتمع تخرج فى مدرسة القرآن ، فقام على مبادىء ستة ، بينها الله تبارك وتعالى فى قوله : « والمؤمنون والمؤمنات : بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » .

وها هو ذا جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، يبين لنا أثر الإسلام والقرآن فى بناء هذا المجتمع الصلب المتين ، القوى الأمين ، فيقول للنجاشى ملك الحبشة : « أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ...

فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ... فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ...

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئاً .

وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام (وعدد عليه أمور الإسلام) . فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ... فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم الله علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ...

فلما سمع « النجاشى » ذلك وقر فى قلبه يقين لا يتزعزع بصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

فانظر ، كيف تحول هذا المجتمع : الذى كان يعبد الأصنام ، ويأكل الميتة ، ويأتى الفواحش ، ويقطع الأرحام ، ويسىء الجوار ، ويعتدى القوى فيه على الضعيف — إلى مجتمع يتبوأ مكانته فوق قبة الفلك ، ويأخذ مقعده فوق مناط الثريا ؟

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله ، والذين معه ، أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ ،

فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما) .

ضع نصب عينيك ودقق النظر فى هذه الجملة القرآنية : « أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » ، وكيف جمعت لهم بين صفتى الشدة والرحمة . . .

إنهم قوم تخلقوا بأخلاق الله تبارك وتعالى حيث يقول : « اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم » .

مثل رائع لوفاء الجيش

وهذا مثل نسوقه هنا ليكون تطبيقاً عملياً لهذا الوصف القرآنى الرائع :

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الجيش ليعترض طريق قافلة قريش ، رداً على ما أخذوه من أموال المسلمين ظلماً واغتصاباً ، فأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا قافلتهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال وأحسن ، ثم قام المقداد ابن عمرو فقال : يارسول الله : امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ... فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه ... فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير .

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع قول الأنصار ، ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد ، فقال : أشيروا على أيها الناس — يريد الأنصار — ؛ لأنهم حين بايعوه بالعقبة ، قالوا : يارسول الله إنا برآء من زمامك حتى تصل إلى دورنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت فى ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاف أن لا ترى الأنصار عليها نصرة له ، إلا إذا دهمه عدو داخل المدينة ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج المدينة ؛ فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سعد بن معاذ رضى الله عنه : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : أجل . قال : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ؛ وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ... إنا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ... فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول « سعد » ونشطه ذلك ، ثم قال : (سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين ؛ والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم) . !

وكان السير على بركة الله ، وكان النصر بتوفيق الله ! !

* * *

وكلمة « سعد » هذه تعتبر — بحق — من الدساتير الرائعة الواجبة التحقيق فى الصلة بين الجيش المخلص الوفى ، والقائد المؤمن !

لقد درسوا هذه المبادىء على يدى أستاذهم الأكبر ، وقائدهم الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الرجل الذى أعلن كلمة التوحيد عالية مدوية فى قلعة الأصنام ، وعاصمة الشرك ، فلم يتزحزح عن مبدئه قيد شعرة ، وظلت قافلة الإسلام تسير والذئاب تعوى ! !

ذكر كتاب السيرة أن رجالا من أشراف قريش مشوا إلى أبى طالب ، فقالوا له يا أبا طالب : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فى عزم مصمم ، وفى إرادة مريدة ، فعظم على أبى طالب — من جانب — فراق قومه وعداوتهم له ، ولكنه — من جانب آخر — لم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ، ولا خذلانه ، ووقع فى حيرة مريرة ، واستغرق فى تفكير عميق ، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقص عليه نبأ قومه ، ثم قال له : يا ابن أخى : أبق على وعلى نفسك ، ولا تحمنى من الأمر مالا أطيق ... فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه رأى جديد ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ...

وفى لمحة فكرية عميقة مستغرقة ، تكشف لرسول الله صلى الله عليه وسلم المستقبل ، دون نصرة عمه : فإذا به يزداد ثقة بالله ، وإيماناً بنصره ، وإذا به يقول : (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه : ما تركته) .

ثم قام واثقاً بالله تعالى ثقة لا تزعزعها الأعاصير ... ثقة تميد دونها الجبال ولا تميد .

فلما ولى : ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا ابن أخى ؛ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

* * *

إن الشجاعة الأدبية المؤمنة لا تتمثل — حقيقة — إلا إذا كان هناك معارضة قوية ، وكلما زادت المعارضة وقويت ، حتى تصبح تهديداً منذراً ووعيداً مهدداً : كانت الشجاعة الأدبية — عند المؤمن بالحق والمؤمن بالصواب مثلا أعلى ، ورجولة كاملة .

وهذه الحادثة — التى رويناها — لا تمثل ظاهرة عابرة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما تمثل شعاراً دائماً رفعه الرسول العظيم الذى أنار الوجود برسالة السماء القويمة ... ذلك النبى الذى شهدت له الدنيا من أعداء وأصدقاء !

إن الشريعة التى جاء بها : هى الهداية الأزلية ... إنه الميراث القيم

لخلاصة الفكر الإنسانى فى حقل التربية والتعليم ... تلك ثروة رائعة ينبغى أن نغالى بقيمتها ، وأن نعرف قدرها ؛ لأنها تمثل أصفى وأنقى وأغلى وأعلى ما توصلت إليه الإنسانية فى آمادها الطوال .

إن الشريعة التى بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم — من حيث التطبيق العملى — نؤمن — ويؤمن العالم معنا — أن هذه الشريعة قد طبقت فعلا ، فأنشأت أجيالا صالحة مؤمنة بربها وبنفسها وبقيمها فى الحياة ؛ وكانت هذه الأجيال نماذج تحتذى فى مثاليتها وثقافتها ومركزها الأدبى فى الحياة ...

لقد تخرج فى مدرسة النبوة رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... كانوا قمما شواهق فى النبل والفضل ، وكانوا أمل الدنيا فى الإنصاف والعدل ، وكانوا مثلا يحتذى فى السلم والحرب ، وكانوا أعلاماً خافقة فى الثقافة والعلم ...

وما يزال العالم ينهل فى معين هذه الثقافة إلى وقت قريب .

ويوم كانت أوربا تتخبط فى دياجير الظلام ، وتسبح فى بحار الجهل ، وتموج فى الرطانة والبربرية : كانت أمتنا العظيمة قد وصلت — بمناهج الوحى الإلهى — إلى ذروة المجد وقمة الحضارة ، وتخرج فى جامعاتها الأطباء ، والرياضيون ، والفلكيون ، والفلاسفة ، وعلماء الجبر ، والمنطق .

ليس المجال هنا مجال استيعاب ؛ لأنه أمر يفوق الحصر ، ويجل عن الوصف .

بل إن كتباً ضخمة قد ألفت فى هذا الموضوع .

وحسبى هنا أن أنقل عن المستشرقين بعض شهاداتهم العادلة عن أثر المنهج الإلهى فى حضارة العالم ، وما تميز به هذا المنهج من بساطة وتكامل وواقعية .

شهادة المستشرقين لمحمد

يقول الكاتب الإنجليزى « ميور » فى كتابه (حياة محمد) : « امتاز محمد » بوضوح كلامه ، ويسر دينه . وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس ، وأحيى الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير : كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

ويقول الأستاذ « سينزل » عميد كلية الحقوق بجامعة فينا ، سنة ١٩٢٧ م فى مؤتمر عالمى : « إن البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، فإنه — على أميته — استطاع — قبل بضعة عشر قرنا — أن يأتى بتشريع سنكون — نحن الأوربيين — أسعد ما نكون ، لو وصلنا إليه بعد ألفى عام » .

* * *

ثم لنقرأ ما قاله « رينان » المستشرق الفرنسى : « ما دخلت مسجداً قط للمسلمين إلا تملكنى غيظ عظيم ، وهو لو أفصحت عنه : لكان نوعاً من الأسى والحزن على أنى لم أكن مسلماً » !!!

* * *

ويقول الأستاذ صاحب كتاب « فلسفة التاريخ الإنجليزى » :
« إن مدارس العرب المسلمين وجامعاتهم فى الأندلس : كانت مصادر العلوم والمعارف ، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر ، يتعلمون فيها العلوم الطبيعية ، وما وراء الطبيعة ، والرياضة ، وكذلك أصبح جنوب إيطاليا — منذ احتله العرب — واسطة لنقل العلوم إلى أوربا » .

* * *

ويحدثنا « هوكنج » الأمريكى ، أستاذ الفلسفة بجامعة « هارفارد » فى كتابه « رحى السياسة العالمية » ، يحدثنا عن خصوبة المنهج التربوى فى الإسلام ، وتطوره واتساعه لكل ما تتسع له الحياة العامة فيقول :
« إنى لأشعر بأنى على حق حين أقرر بأن فى الشريعة الإسلامية كل المبادىء اللازمة للنهوض بالحياة » .

* * *

هذه هى أقوال المستشرقين الأجانب ، التى تخلصت نوعاً ما من نزعة التعصب ، واتجهت إلى الإنصاف ، رغم ما عاناه الإسلام من حقد ظالم ، وتعصب جاهل ، وتهجم شرير ؛ ولكن يبدو أن للحقائق جلالا ، وأنها — مهما تضطهد أو تجحد — فلابد أن تفرض نفسها .

ومن قبل ذلك — ومنذ بعث الله تعالى نبيه محمداً بالهدى ودين الحق — وقف منه المعاندون ينكرون بألسنتهم ، وإن كانت قلوبهم لا تطاوعهم فى إنكار الحق ، كما قال سبحانه وتعالى : « وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا » :

ذكر كتاب السيرة أن عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش : ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون . فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « يا ابن أخى ! إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ؛ فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منى بعضها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : يا ابن أخى ! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت إنما تريد به شرفاً ، سوّدناك علينا ، حتى لانقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد به مُلكاً ، ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رِئْياً تراه لاتستطيع رده عن نفسك : طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . . .

حتى إذا فرغ «عتبة» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه ، قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال فاسمع منى ؛ قال : افعل ، قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ۞ حَمٓ ۞ تنزيل من الرحمن الرحيم ۞ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ۞ بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون ۞ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون » .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها عليه .

فلما سمعها منه « عتبة » : أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه. ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم على « آية السجدة » من هذه السورة الكريمة ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد » ؟ .

قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ! !

يامعشر قريش أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب : فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

۞ ۞ ۞

قد يقول قائل : : إنه لو عُرض على محمد صلى الله عليه وسلم هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل .

وهذا القول ينقضه أن « عتبة » كان مفوضاً من زعماء قريش ؛ وينقضه أيضاً هذا الخبر الذى ترويه كتب السيرة :

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبوسفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث — أخو بنى عبد الدار — وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام — عليه لعنة الله — وعبد الله بن أبى أميمة ، والعاص ابن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف — اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : « ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه » . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم ؛ فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه — وكان عليهم حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم — حتى جلس إليهم ، فقالوا له :

« يامحمد : إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ؛ وفرّقت الجماعة ؛ فما بقى أمر قبيح إلاجئته فيما بيننا وبينك ؛ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت إنما ترید

ملكاً : ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك (وكانوا يسمّون التابع من الجن رئياً) فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك » .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ماجئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على ، أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم » .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

الويل كل الويل لمن حفظ القرآن ثم نسيه

من أعظم الذنوب عند الله تعالى : نسيان القرآن بعد حفظه .

فإذا كان الإسلام قد أمر بإكرام الضيف ، ونطق بذلك الحديث الشريف حيث يقول : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) : فإن إكرام القرآن والمحافظة عليه ، أعظم من هذا . . . فهو أكرم من الضيف ، وأعز من كل ضيف .

وإذا كان الإسلام قد أمر بإكرام الجار ، فقال فى الحديث الشريف : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره) : فالقرآن أغلى من كل جار ؛ إذا أنه يجعل صاحبه من جيران الله يوم القيامة .

وإذا كان الإسلام قد أمر بإكرام الوالدين ، فقال فى القرآن العظيم : « وبالوالدين إحساناً » فالقرآن أغلى من الوالدين ، فإكرامه أوجب من هؤلاء جميعاً .

وإنما يتمثل الإكرام للقرآن فى العمل بأحكامه ، وتطبيقها تطبيقاً عملياً واقعياً ... كذلك ، المحافظة عليه ، خوف النسيان والضياع .

وهناك حشد من الأحاديث النبوية الشريفة ، حذرت تحذيراً شديداً من نسيان القرآن بعد حفظه :

قال صلوات الله وسلامه عليه : (عُرضت على أجور أمتى ، حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد ، وعُرضت على ذنوب أمتى ، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ، ثم نسيها) ! !

كفى بهذا الوعيد زجراً لمن ينسون القرآن بعد حفظه ، ولا ينسون اللغو من الكلام ، والفحش من الألفاظ ...

إن من أعظم الذنوب التى عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : نسيان القرآن بعد حفظه ، ولو كان الذى نسيه العبد ، سورة أو آية !

وهناك حديث شريف يبين موقف الذى نسى القرآن من الله يوم القيامة ، فيقول صلى الله عليه وسلم : (مامن امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه ، إلا لقى الله أجزم : أى مقطوعاً) والعياذ بالله تعالى .

الدعاء المأثور لحفظ القرآن :

لما كان نسيان القرآن كبيرة من الكبائر : فإن نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ذكر دعوات تساعد على حفظ القرآن وتثبيته فى القلب ، خشية أن يتفلت من صاحبه :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : بأبى أنت وأمى تفلت هذا القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه ، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم : يا أبا الحسن، أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفع بهن من علمته ، ويثبت ماتعلمت فى صدرك ؟ قال : أجل يارسول الله فعلمنى ، قال : إذا كانت ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الأخير ، فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب ، فقد قال أخى يعقوب لبنيه : سوف أستغفر لكم ربى — يعنى : حتى تأتى ليلة الجمعة — فإن لم تستطع ، فقم فى وسطها ، فإن لم تستطع فقم فى أولها فصل أربع ركعات ، تقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة

« يسّ » ، وفى الركعة الثانية بفاتحة الكتاب و « حمّ — الدخان » وفى الركعة الثالثة ؛ بفاتحة الكتاب و « آلم ، تنزيل — السجدة » ، وفى الركعة الرابعة ، بفاتحة الكتاب و« تبارك» . المفصل ، فإذا فرغت من التشهد ، فاحمد الله ، وأحسن الثناء على الله ، وصلّ على ، وأحسن ، وعلى سائر النبيين ، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان ، ثم قل فى آخر ذلك : اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبداً ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف مالا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى . اللهم بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لاترام ؛ أسألك يا ألله يارحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك ، كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى . اللهم بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا تُرام ، أسألك يا ألله يارحمن ، بجلالك ونور وجهك ، أن تنور بكتابك بصرى ، وأن تطلق به لسانى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تستعمل به بدنى ! فإنه لايعينني على الحق غيرك ، ولا يؤتينه إلا أنت ، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم . يا أبا الحسن : تفعل ذلك ثلاث جُمَع ، أو خمساً ، أو سبعاً : تجاب بإذن الله . والذى بعثنى بالحق ، ما أخطأ مؤمناً قط . قال ابن عباس رضى الله عنهما : فو الله مالبث علىٌّ إلا خمساً أو سبعاً ، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل ذلك المجلس فقال يارسول الله : إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات ونحوهن ، فإذا قرأتهن على نفسى تفلتن ، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية ونحوها ، فإذا قرأتهن على نفسى فكأنما كتاب الله

بين عينى . ولقد كنت أسمع الحديث ، فإذا رددته تفلت ، وأنا اليوم أسمع الأحاديث ، فإذا تحدثت بها ، لم أحرم منها حرفاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن) .
(رواه الترمذى)

تعهد القرآن بالرعاية :

واجب المؤمن أن يتعهد القرآن بكثرة تلاوته حتى لاينساه ولا يتفلت منه ، فقد بلغ من العناية بشأن القرآن وتعهده بالرعاية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرض لأحد نسى شيئاً من القرآن أن يقول نسيت آية كذا وكذا — يسند النسيان إلى نفسه — وإنما يقول : نُسِّيت هذه الآية أو أُنسيتها (بالبناء لغير المعلوم) وهذا من باب إكرام القرآن والعناية بحفظه ، وحتى لايسند فعل النسيان إليه ، لما فى ذلك من الذنب والمخالفة ! قال صلى الله عليه وسلم : (بئسما لأحدهم يقول ؛ نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نسى ، استذكروا القرآن ، فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال ، من النعم بعقلها) رواه البخارى .

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تعاهدوا القرآن ، فو الذى نفس محمد ، لهو أشد تفلتاً من الإبل فى عقلها) رواه مسلم .

وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا لصاحب القرآن الذى يتعهده بالحفظ والقراءة : كصاحب الإبل المعقلة التى يتعهدها صاحبها ؛ وصاحب القرآن الذى لايتعهده : بالإبل غير المعقلة التى لايتعهدها صاحبها ، سرعان ماتذهب .

قال صلى الله عليه وسلم : (إنما مثل صاحب القرآن ، كمثل الإبل المعقلة ، إن عاهد عليها ، أمسكها ، وإن أطلقها ، ذهبت) .

وإنما مثّلها بالإبل ، لأن من طبعها أنها إذا ذهبت هروباً من صاحبها ، لاتعود وحدها ، بل لابد أن يبحث عنها ويأتى بها .

وهذا مثل يُضرب للعزة والأنفة ؛ وليس هناك أعز من كتاب الله ، فمن لم يكرم نزله بمداومة التعهد والقراءة ، تفلت من صدره وفر من قلبه.

جـــلال التـــلاوة

لتلاوة القرآن جلال ووقار ، وسكينة وخشية ، ولذا ينبغى تحسين الصوت بتلاوته ، بحيث يكون محافظاً على أحكامه ، ملتزماً بقواعده ؛ ليقصد بقراءته خشية الله وترقيق القلوب .

قال صلى الله عليه وسلم : (زينوا القرآن بأصواتكم) ، وقال أيضاً : (إن هذا القرآن نزل بحزن ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا ، فتباكوا » .

وليست قراءة القرآن استعراضاً للنغمات والتوقيعات والمقامات ، بل إن قراءته خشية وسكينة ووقار ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، الذى إذا سمعتموه يقرأ ، حسبتموه يخشى الله) . (رواه ابن ماجه)

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتاب « إحياء علوم الدين » ماينبغى من الأعمال الباطنة لقارىء القرآن ، نوردها فيما يلى :

أولا — فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه .

ثانياً — التعظيم للمتكلم ، ويعلم أن مايقرأه ليس من كلام البشر ، وباطن قلب القارىء يتطهر عن كل رجس ، ويستنير بنور التعظيم والتوقير .

ثالثاً — حضور القلب ، وترك حديث النفس .

رابعاً — التدبر : قال على رضى الله عنه : لاخير فى عبادة لافقه فيها ، ولا قراءة لاتدبر فيها .

خامساً — التفهم : أى يستوضح معانيه الدالة على صفاته وكماله .

سادساً — التخلى عن موانع الفهم .

سابعاً — التخصيص : (أى يقدّر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن) : أى هو المأمور ، المنهى ، الموعود ، المهدد بالوعيد ، ويعتبر بقصص الأنبياء .

ثامناً — أن يتأثر قلبه ، ويخشى الله تعالى .

تاسعاً — الترقى : كأن العبد يقرأ على الله عزوجل واقفاً بين يديه ، ويشهد بقلبه كأن الله يراه ، ويخاطبه بألطافه ، ويناجيه بإنعامه وإحسانه ، ويرى فى الكلام : المتكلّم ، وفى الكلمات : الصفات . فيستغرق فى مشاهدة الله عز وجل .

عاشراً — التبرى : أى يتبرأ من حوله وقوته ، والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية ، فيشهد ويتشوف إلى الصالحين ، ويؤنب نفسه المقصرة .

• • •

هذا هو القرآن فى جلاله وعظمته ، نشر لواءه على أمة الإسلام ، فملأت الدنيا سلاماً ووئاماً ، ورحمة وإخاء ، وشخّص للدنيا داءها ، ووصف لها دواءها ، وجاء الدواء موافقاً للداء ...

قال تعالى : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولايزيد الظالمين إلا خسارا » .

رزقنا الله وإياكم تلاوة القرآن حق تلاوته ، ووفقنا للعمل به .

ماذا فعلت المدنية الحديثة ؟

فعلت كثيراً ، وكثيراً :

خاضت فى دماء البشر ، وشنت حربين عالميتين فى أقل من ربع قرن ؛ وهاهو ذا تقرير علمى يبين لنا — بالأرقام — الجرائم التى ارتكبتها هذه المدنية — فى حروبها وعنفها وجبروتها — تحت عنوان : « جيل الحرب».

قال الأستاذ كاتب المقال : « شهد العالم فى النصف الأول من هذا القرن حربين عالميتين خارجيتين ، انقسم فيهما العالم إلى نصفين ، كل نصف يقاتل الآخر ويحاول تدميره والإجهاز عليه ؛ وتحولت فيهما كل القوى إلى قوى مخربة ، لا يستطيع كاتب — مهما بلغ — أن يصف ما أصاب الناس فيهما من هول وفزع ، وكرب وضيق ، اكتوى بنارهما الصغير والكبير ، والشاب والشيخ ، والفتاة والمسنة ، ومن لم يصب بشظاياهما : أصيب بلهيبهما اللافح ، وسمومهما الخانقة ، حتى الأجنة فى الأرحام ، لم تنج من ويلات الخوف والقلق الذى أصاب الأمهات فى هذا الحين ؛ وليس فى هذا شىء من المبالغة والتهويل : فلغة الأرقام

والآلات والإحصاءات ، كفيلة بأن تعطى للقراء بعض الحقيقة ، لا كل الحقيقة — للمآسى الإنسانية التى نزلت بها ، ولم تشهد لها مثيلا فى تاريخها الطويل ، حتى فى عصور الهمجية والغاب ...

نشبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، ولم تسكت نيران مدافعها إلا فى الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، واشتركت فيها ثلاث وثلاثون دولة ، وحشد لها من الجنود المحاربين أربعة وسبعون مليون شاب . . .

أما عدد القتلى ، فبلغ عشرة ملايين آدمى ؛ والمشوهون الذين فقئت أعينهم ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، أو تيبست فقاريهم ، أو اهتزت أعصابهم ، وشردت عقولهم وأصبحوا غير قادرين على العمل ، فيقرب من ضعف عدد القتلى .

والخسارة الحضارية والمادية التى لحقت بالإنسانية فى هذه الحرب ، أكبر من أن تقوّم بمال ، أو تحدها أرقام ، وهذه الأرقام — على ضخامتها وفداحتها — لم تستطع أن تجنب العالم شر التردى فى حرب عالمية ثانية ، بل على العكس من ذلك ، زادت فى ضراوة الإنسان ووحشيته ، وولوعه بسفك الدماء وإزهاق الأرواح ، وحملت على التنافس والتسابق فى اختراع المهلكات المبيدات .

فلم تمض على الحرب العالمية الأولى فترة يفيق الناس فيها من هولها ويعالجون ويلاتهم ، حتى اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية ، فكانت أشد ضراوة ، وأعظم ضحايا ، وأكبر كارثة على الإنسانية ، لم تشهد

لها مثيلا ، لافى حرب ١٩١٤ ، ولا فى الحرب التى نكبت بها البشرية من قديم الزمان .

اندلعت النار سنة ١٩٣٩ ، ولم تخمد إلا فى سنة ١٩٤٥ ، واشتركت فيها اثنتان وسبعون دولة ، وحشد لها من الجنود المقاتلين مائة مليون وعشرة ، وذهب طعمة نيرانها عشرات الملايين ، وعدد ذوى العاهات والمشوهين يعطى أبشع صورة لأسوأ مأساة تعرضت لها الإنسانية .

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الحرب هزت النظم الاجتماعية ، وبلبلت الأفكار فى العقائد والأخلاق .

فالحرب لايقف عدوانها عند إزهاق الأرواح ، وإراقة الدماء ، وتدمير الحضارات ، بل يتجاوز هذا كله إلى العادات والتقاليد ...

الحرب يعايشها وينتج عنها تحول كبير فى العلاقات الإنسانية ، والروابط الاجتماعية ، واستهتار بالغ بالقيم والمثل ، وتغيير معاكس فى المفاهيم ... فمن اقتحام للحرمات ، واستباحة للأعراض — إلى الخيانات ، وفساد الذمم ، وانتشار الجرائم ، وإدمان المخدرات ، وتمهيد الطريق للغنى الفاحش بالمراباة ، والاحتكار ، والجشع ، وانتهاب اللذات المجردة ... إلى تسرب الإلحاد والإباحية ، مما يجعل مصيبة الناس فى عقولهم وأفكارهم ، أكبر من مصيبتهم فى الأنفس والأموال .

والدراسات الاجتماعية والإنسانية ، التى تعنى بتتبع آثار الحروب على الفكر والخلق والسلوك الإنسانى ، تكشفت عن أخطار وأضرار تفوق — فى جسامتها — الخسائر المادية التى يضبطها الإحصاء بالأرقام .

فالغزاة يتركون الأرض التى وطئوها ، والديار التى جاثوا خلالها ، آثاراً حيوانية ، لا تمت إلى الشرف والكرامة ولا للفضيلة بسبب من الأسباب ، ولايسلم من أخطارها إلا من عصمه الله — وقليل ماهم ! !

ثم تأتى بعد الحرب العالمية الثانية ، الحروب الإقليمية ، التى قلما تنجو منها حالياً قارة من قارات الدنيا ، والتى تنذر بحرب عالمية ثالثة ، لا يعلم عقباها إلا الله .

فى هذا الجو المحموم ، المخضب بالدماء ، والمملوء بالخوف والذعر ، المشحون بالقلق والاضطراب ، ووسط الأحقاد والأضغان والمظالم التى قطعت الرحم الإنسانية ، وعصفت بكل القيم والموازين ، وتنكرت لجميع الأديان والشرائع السماوية ، عاشت وولدت الأجيال المعاصرة — الجيل القديم ، والجيل الوسيط ، والجيل الحديث — جيل الآباء والأبناء والأحفاد ، مع قليل من التجاوز عما اصطلح عليه أو اختلف فيه الباحثون فى تحديد سن الشباب ومقاييسه .

فإنا نرى أن الشباب هم الذين بلغوا سن الأبوة ، وإن لم يكونوا آباء بالفعل ، وجيل الشباب هذا لم يخلق مبتوت الصلة بالجيل السابق عليه ولا معزولا عن المجتمع الصغير الذى ولد وترعرع فيه ، ولا عن المجتمع الإنسانى الكبير وماعانى من حروب طاحنة .

وفى اعتقادى أن أصدق وصف يميز هذا الجيل عمن سبقه من أجيال : هو أنه « جيل الحرب » . . . انتهى كلامه .

• • •

آثـــارها الضـــارة :

أعلمت كيف زجت المدنية المادية الرهيبة بهذا الجيل إلى أتون شديد الأوار ، فطحنت — تحت أضراسها ، ومزقت تحت أنيابها — استقرار الأمم وسلامها ووئامها ؟

ثم قارن بعد ذلك بينها وبين نظم الإسلام ، التى جعلت من رجاله قادة وسادة ، نشروا ألوية الرحمة والمحبة على ربوع الأرض ، حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « لو عثرت بغلة فى العراق ، لسألنى الله عنها : لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق يا عمر » ؟

أمة كان شعارها : رحمة ، ومودة ، وأخوة . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » .

هذا أحد المعالم الثابتة على طريق النصر : أمة تحمى ولا تبدد ، تجمع ولا تفرق ، تحلم ولا تجهل ، تنطق بلسان الواقع ، ولا تجرى وراء الخيال الخداع ، والسراب الكاذب .

عمر : المثل الأعلى للعدل

رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخاً ضريراً يسأل على باب ؛ فلما علم أنه يهودى قال له : « ما ألجأك إلى ما أرى ؟ » فأجابه : « اسأل للجزية ، والحاجة ، والسن » .

فأخذ « عمر » بيده ، وذهب به إلى منزله ، فأعطاه مايكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : « انظر هذا وضرباءه : فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم : إنما الصدقات للفقراء والمساكين . وهذا من مساكين أهل الكتاب » .

ووضع « عمر » عنه الجزية وعن ضُربائه ، ولم يشأ « عمر » أن يأكله شاباً ثم يخذله إذا كبر ، مع علمه أنه يهودى ، لا يدين بدينه .

فماذا فعل « عمر » للمسلمين الذين قعدت بهم السن :

إنه لاشك أجرى عليهم مايكفيهم من بيت المال .

ولم يكتف « عمر » بحماية المسنين ، بل فرض لكل مولود مائة درهم من بيت المال .

ويحضرنى فى هذا المقام قصة لابأس من سردها :

سمع « عمر » بكاء صبى وهو يتعسس بالليل لينقب عن الكروب المخبوءة ، فتوجه نحوه ، فقال لأمه : اتق الله وأحسنى إلى طفلك ؛ ثم عاد إلى مكانه ؛ فلما كان آخر الليل ، سمع بكاءه فأتى أمه فقال لها : ويحك ،

إنى أراك أم سوء ، مالى أرى ابنك لايقر منذ الليلة ؟ ! فأجابت قائلة : ياعبد الله ، لقد آلمتنى ! إنى أعوده الفطام فيأبى ، فسألها أمير المؤمنين قائلا : ولم ؟ قالت : لأن « عمر » لايفرض إلا للفطم ، قال عمر : وكم له من العمر ؟ قالت كذا وكذا شهراً ؛ فأجاب متعجباً ! ويحك ، تعجلينه ؟ .

ثم صلى الفجر ، فلما سلم قال : يابؤسا لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ؟ .

ثم أمر منادياً ، فنادى : لاتعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام !

ولما سافر « عمر » إلى دمشق ، مر فى الأرض بقوم مجزومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجرى عليهم القوت ! ! .

لله درّك يا أمير المؤمنين ! يامن كنت تقول لأهلك : إن الناس ينظرون إليكم ، كما ينظر الطير إلى اللحم ! ! .

إن جاع فى شدة قوم ، شركتهم ... فى الجوع ، أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفـــة ، والدنيا بقبضته ... فى الزهد ، منزلة ، سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وســيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها ؟
يوم اشتهت زوجه الحلوى ، فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فأشريها ؟
مازاد عن قوتنا ، فالمسلمون به ... أولى ، فقومى لبيت المال رديها
كذلك أخلاقه ، كانت ، وماعهدت ... بعد النبوة ، أخلاق تحاكيها !

* * *

إذا علمنا هذا فليس مشروع سير « بيفردج » بجديد ، فقد وسعت عدالة « عمر » الاجتماعية ، المتعطلين ، كما وسعت المسنين ، وفرض للأولاد من بيت مال المسلمين ، كما أمر بعلاج المرضى ، وأجرى القوت عليهم ، ورصد الأرزاق على المعلمين الذين يربون الصغار .

هذه هى عدالة الإسلام متمثلة فى « عمر » ، ثانى الخلفاء الراشدين ، قامت بما لم تقم به أرقى الدول فى القرن العشرين .

لقد حاولت إنجلترا — وهى أرقى دولة فى الخدمات الاجتماعية — أن ترفه عن الفقراء بها ، فعجزت عن أن تصل إلى ما وصل إليه الإسلام فى عهد عمر ...

لقد تقدم سير « بيفردج » بمشروع للبرلمان الإنجليزى ، اهتزت له أسلاك البرق فى أنحاء المعمورة ، لما حواه من ترفيه عن الفقراء ، وتأمين اجتماعى لجميع الرعاة البريطانيين .

إن الناظر إلى الجدول الأول من مشروع التأمين الاجتماعى للمتعطلين والمسنين والأرامل ، ومايعطى فى حالة الولادة والعلاج الطبى ... إن هذا جميعه : عالجه « عمر » ، وفرض له من بيت مال المسلمين !

* * *

السر فى أن الإسلام قد حقق هذه الرحمة ، هو ما امتاز به الشرع الحنيف من العدالة ، التى بلغت حداً لايسامى ، ولا يُلحق به ، ولا يشق له غبار ...

ذكروا أنه لما مزق المسلمون « ملك » كسرى ، حملوا نفائسه إلى

المدينة ، قال عبد الله بن الأرقم لعمر : يا أمير المؤمنين ، أجعلها فى بيت المال حتى نقسمها ؟ فقال عمر : والله لايظلها سقف بيت دون السماء !.

فطرحت بين صُفَّتَى المسجد — صفّة النساء ، وصفّة الرجال — وطرحت عليها البسط ، وباتوا عليها يحرسونها ...

فلما أصبح ، كشف « عمر » عنها ، فرأى الذهب والفضة ، فبكى ، فقال له عبد الرحمن بن عوف ؛ مايبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا اليوم ليوم شكر ويوم فرح وسرور ! فقال عمر : لا والله ، مافتح الله على قوم هذا قط ، إلا جعل بأسهم بينهم : العداوة والبغضاء وقام عمر ، وقسم الغنائم بين المسلمين .

لله درك يا أمير المؤمنين . . . عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا .

* * *

سجـــود التـــلاوة

إعلم ــ وفقك الله ــ يا أخى أن فى القرآن الكريم آيات يستحب للمسلم إذا قرأ آية منها ، أن يسجد سجدة تسمى « سجدة التلاوة » .

كيفية السجود :

من قرأ « آية سجدة » أوسمعها ، يستحب له أن يكبر ويسجد سجدة ، ثم يكبر للرفع من السجود ؛ وهذا يسمى : « سجود التلاوة » ، ولا تشهد فيه ولاتسليم .

فعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله الله عليه وسلم يقرأ علينا القرآن، فإذا مر بالسجدة ، كبر وسجد ، وسجدنا ». (رواه أبو داود ، والبيهقى ، والحاكم) .

وقال أبو داوود : قال عبد الرزاق : وكان الثورى يعجبه هذا الحديث ، وقال أبو داوود : يعجبه ، لأنه كبر ، وقال عبد الله ابن مسعود: إذا قرأت سجدة ، فكبر واسجد ، وإذا رفعت رأسك ، فكبر .

فضلهـــا :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قرأ ابن آدم « السجدة » فسجد ، اعتزل الشيطان يبكى ، يقول : يا ويله ! أُمر بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت، فلى النار » (رواه أحمد ومسلم وابن ماجه) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه « أنه رأى رؤيا ، أنه يكتب

(ص) ، فلما بلغ إلى سجدتها قال : رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً . قال : فقصصتها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يسجد بها » (رواه أحمد) .

يا لله ! !

هذه رؤيا للصحابي الجليل أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، لقد رأى في منامه أنه يكتب سورة (ص) ، فلما وصل إلى قوله جل شأنه : (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) ، رأى سجود الدواة والقلم ! !

الله أكبر ... لقد وضع الله الطاعة في الجمادات تسجد لربها ... قال تعالى : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لاتفقهون تسبيحهم) . وقال جل شأنه : (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض ، والطير صافات ، كُلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه) ؟

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله: إني رأيت هذه الليلة فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة ، فرأيت كأني قرأت « سجدة » ، فرأيت الشجرة كأنها تسجد لسجودي ، فسمعتها وهي ساجدة تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وضع عني بها وزراً ، واقبلها مني كما تقبلت من عبدك (داوود) . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « السجدة » ، فسمعته وهو ساجد يقول مثل ماقال الرجل عن كلام الشجرة » .

(رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، واللفظ له) .

حكمهـا :

ذهب جمهور العلماء إلى أن سجدة التلاوة سنة للقارىء والمستمع ، وذلك لما رواه البخارى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة « النحل » ، حتى جاء « آية السجدة » فنزل وسجد ، وسجد الناس ، حتى إذا كانت الجمعة القابلة ، قرأبها ، حتى إذاجاء «آيةالسجدة » قال : يا أيها الناس « إنا نؤمر بالسجود ، فمن سجد فقد أصاب ، ومن لم يسجد فلا إثم عليه» . وفى لفظ : « إن الله لم يفرض علينا السجود ، إلا أن نشاء» وروى الجماعة — إلا ابن ماجه — عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « قرأت على النبى صلى الله عليه وسلم : « والنجم » فلم يسجد فيها » . رواه الدارقطنى ، وقال : فلم « يسجد منا أحد » .

ورجح الحافظ فى الفتح : أن الترك كان لبيان الجواز ؛ وبه جزم الشافعى رضى الله عنه .

ويؤيده ما رواه البزار والدارقطنى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « إن النبى صلى الله عليه وسلم سجد فى سورة « والنجم » وسجدنامعه؛ قال الحافظ فى الفتح: ورجاله ثقات ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ «والنجم » فسجد فيها وسجد من كانمعه».

ويستخلص من هذا أن سجود التلاوة « سنة » ، وليس فرضاً ، وعلى المؤمن أن يحافظ على السنة ، حتى لايُحرم من الأجر .

مواضع السجود فى القرآن الكريم :

مواضع السجود فى القرآن ، خمسة عشر موضعاً :

فعن عمرو بن العاص رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن : منها ثلاث فى « المفصل » ، وسجدتان فى « الحج » (رواه أبو داوود وابن ماجة) .

وهاهى ذى المواضع التى يسن للقارىء أو المستمع أن يسجد عند قراءتها أو سماعها :

١ — قوله تعالى : « إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » (٢٠٦ — سورة الأعراف) .

٢ — « ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال » . (١٥ — سورة الرعد) .

٣ — «ولله يسجد مافى السماوات ومافى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون » (٤٩ — سورة النحل) .

٤ — « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً » (١٠٧ — سورة الإسراء) .

٥ — « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .
(٥٨ — سورة مريم)

٦ — « ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب. ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ». (١٨ — سورة الحج)

٧ — « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » . (٧٧ — سورة الحج)

٨ — « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفوراً » . (٦٠ — سورة الفرقان)

٩ — « أن لا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ماتخفون وماتعلنون » . (٢٥ — سورة النمل)

١٠ — « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون » . (١٥ — سورة السجدة)

١١ — « وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب » . (٢٤ — سورة ص)

١٢ — « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لاتسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » . (٣٧ — سورة فصلت)

١٣ — « فاسجدوا لله واعبدوا » . (٦٢ — سورة النجم)

١٤ — « وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون » . (٢١ — سورة الانشقاق)

١٥ — « واسجد واقترب » . (١٩ — سورة العلق)

تعليق :

إذا علمت أن هذه الآيات هى التى يستحب السجود عند تلاوتها ، فلا سجود عندما يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، وذلك كما فى قوله

تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » ، كذلك لاسجود عندما يسجد آل يعقوب ليوسف فى مثل قوله تعالى : « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً » ، فإن هذا السجود : كان سجود تحية ، لا سجود عبادة ، وكان بتوجيه من الله تبارك وتعالى :

* * *

ما يشترط لسجود التلاوة :

اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ، ما اشترطوه للصلاة من الطهارة ، واستقبال القبلة ، وستر العورة .

الدعـــاء فيه :

من سجد سجود التلاوة ، دعا بما شاء ، ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، إلا حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجود القرآن : سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين».

وينبغى للمصلى إذا سجد سجود التلاوة فى الصلاة أن يقول فيه : « سبحان ربى الأعلى » ثلاثاً .

السجود فى الصـــلاة :

يجوز للامام والمنفرد أن يقرأ « آية السجدة » فى الصلاة الجهرية والسرية ، ويسجد متى قرأها .

روى البخارى ومسلم عن أبى رافع قال : (صليت مع أبى هريرة

صلاة العتمة — أو قال صلاة العشاء — فقرأ « إذا السماء انشقت » فسجد فيها ؛ فقلت : يا أبا هريرة ماهذه السجدة ؟ فقال : سجدت فيها خلف أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ، فلا أزال أسجدها حتى ألقاه » .

تداخل السجدات :

إذا قرأ القارىء « آية السجدة » وكررها ، أو سمعها أكثر من مرة فى المسجد الواحد ، سجد سجدة واحدة ، بشرط أن يؤخر السجود عن التلاوة الأخيرة ، فإن سجد عقب التلاوة الأولى ، فقيل تكفيه ، وقيل يسجد مرة أخرى ، لتجدد السبب .

قضـــاؤها :

يرى « الجمهور » أنه يستحب السجود عقب قراءة آية « السجدة » أو سماعها ، فإن أخر السجود ، لم يسقط ، مالم يطل الفصل ؛ فإن طال ، فإنه يفوت ولايقضى .

مثل الذى لم يحفظ قرآنا

إذا كنا قد تحدثنا عن فضل سجدة التلاوة ، ومالها من أثر كريم على نفس المؤمن ، وأثر سيء على نفس إبليس ، فإنه يجدر بنا أن نذكر من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم مايبين منزلة الذى ليس معه شيء من القرآن :

فقد ضرب له الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا فقال : « إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » .

بل وضرب صلى الله عليه وسلم أيضاً مثلا للبيت الذى ليس فيه قرآن فقال : « إن أصفر البيوت : بيت ليس فيه شيء من كتاب الله » !

* * *

صدقت ياسيدى يارسول الله !

كفى بهذين الحديثين بياناً لمن خلا جوفه من القرآن ، وخلا بيته منه ، فجوفه كالبيت الخرب ، وبيته من أصفر البيوت عند الله .

* * *

فأقبل أيها المؤمن ، واملأ جوفك ، وعطر لسانك ، ونور قلبك بحفظ القرآن الكريم وتلاوته ... فإنه نور لك فى الأرض ، ذخر لك فى السماء ، شفيع لك إلى الجنة ، حجة لك يوم الحساب :

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » .

فى رياض القرآن الكريم

وها نحن أولاء — أيها القارىء الكريم — نطوف بك فى رياض القرآن ، الذى تربى فى مدرسته أفذاذ الرجال ، وأساتذة الأخلاق ، وأساطين الفكر ... نقطف من كل بستان زهرة ، ومن كل حديقة وردة ؛ لنجعل منها باقة عبقة نهديها إلى سيد الخلق وحبيب الحق ، محمد صلى الله عليه وسلم ، فنتحدث عن بعض أفضال القرآن فى تلاوة سوره وترتيل آياته .

بعض ما ورد عن سورة « الفاتحة »

ولنبدأ أولا بالأحاديث الواردة فى فضل سورة الفاتحة ، التى تعتبر « أم الكتاب » ، لاشتمالها على الخطوط العريضة للمنهج القرآنى الرفيع.

فقد اشتملت هذه السورة الكريمة على العقيدة والجزاء ، والعبادة ، والأخلاق ، والتاريخ .

فى قوله جل شأنه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم » يتمثل جانب العقيدة .

وفى قوله سبحانه : « مالك يوم الدين » : يتمثل جانب الجزاء .

وفى قوله جل شأنه : « إياك نعبد وإياك نستعين » : يتجلى جانب العبادة .

وفى قوله تبارك وتعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » يتضح المنهج الأخلاقى .

وفى قوله عز وتقدس : « صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يظهر — بجلاء — الجانب التاريخى .

وعلى هذه المبادىء الكريمة سارت نجوم القرآن فى أفلاكه :

فعن أبى سعيد بن المعلى رضى الله تعالى عنه قال : (كنت أصلى بالمسجد ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أجبه ، ثم أتيته ، فقلت يارسول الله : إنى كنت أصلى ، فقال : ألم يقل الله تعالى : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ » ، ثم قال : لأعلمنك سورة هى أعظم

سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؛ فأخذ بيدى ؛ فلما أردنا أن نخرج قلت يارسول الله : إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قال : الحمد لله رب العالمين : هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته) رواه البخارى ، وأبو داود ، والنسائى وابن ماجه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أُبَيّ بن كعب وهو يصلى ، فقال : (يا أبى ، فالتفت — أو : فلم يجبه — وصلى أبى ، فخفف ، ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يارسول الله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ، مامنعك ياأبى أن تجيبنى إذ دعوتك؟فقال : يارسول الله : إنى كنت فى الصلاة ، قال : أفلم تجد فيما أوحى الله إلى أن « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ؟ » قال : بلى ، لاأعود إن شاء الله ؛ قال : أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولافى الفرقان مثلها ؟ قال : نعم يارسول الله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تقرأ فى الصلاة ؟ قال : فقرأ أم القرآن ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها ، وإنها سبع من المثانى والقرآن العظيم الذى أُعطيته) .

وروى أبوهريرة رضى الله عنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن رب العزة ، قال : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ماسأل — وفى رواية : فنصفها لى ، ونصفها لعبدى —

فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى ، فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى على عبدى ، فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى ؛ فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ماسأل)
(رواه مسلم)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما جبرائيل عليه السلام قاعد عند النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فُتح . لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا مَلَك نزل إلى الأرض ، لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما ، لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته) . (رواه مسلم والنسائى)

وعن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أعطيت مكان التوراة : السبع ، وأعطيت مكان الزبور ، المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل : المثانى ، وفُضِّلت : بالمفصل .
(رواه أحمد ، وفى إسناده عمران القطان)

بعض ما ورد عن سورة « البقرة »

ولننتقل بك أيها القارىء الكريم بعد ذلك إلى روضة أخرى من رياض القرآن الباسقة ، لتنشق عبيرها الفواح ، وعطرها الندى ...

تعال لترى ماجاء على لسان الصادق المصدوق — صلى الله عليه وسلم — فى فضل « سورة البقرة » .

فإنها إذا قرئت فى البيت : تنظفه ، وتطهره من أرجاس الشيطان وأنجاسه ، ووساوسه ومكايده .

وأولى بالذين يضلون ويطرقون أبواب السحرة ، والكهنة ، والدجالين والعرافين ... أولى بهم جميعاً أن يفيقوا من غفوتهم ، ويستيقظوا من غفلتهم ، ويسلكوا هذا الطريق ، فإنه طريق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ...

أولى بهؤلاء أن يقفوا على قول الرسول الأعظم ، والنبى الأكرم : (لاتجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة) . (رواه مسلم والنسائى والترمذى)

إنك — وأنت تقرأ هذا الحديث الشريف — تستشعر عظمة القرآن من خلاله ، فإن البيت الذى لايقرأ فيه القرآن : كالمقبرة الموحشة ، التى لاتجد فيها بصيصاً من نور .

فإذاً : عليك أن تضىء بيتك ، وتعمره بالقرآن ... فإذا ما قرأت سورة « البقرة » كانت لك دواء ناجعاً ، وشفاءاً نافعاً ، ضد الشيطان ووساوسه .

مكانتها عند الله :

يجيب على هذا نبى الرحمة المهداة ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : («البقرة» سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً ، واستخرجت : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » من تحت العرش ،

فوصلت بها — أو فوصلت بسورة البقرة — و « يَسَ » : قلب القرآن ، لايقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غُفِرَ له) .

ومن هذا الحديث : نعلم ما لهذه السورة من مكانة ... فهى السنام ، والذروة ، والقمة الشامخة .

ويكفى ما لها من مكانة وشرف ، أن كل آية من آياتها ، شيعتها بعثة شرف ملائكية ، قدرت بثمانين ملكا .

بعض ما جاء فى فضل آية « الكرسى »

ثم يزيد ذلك الشرف تعظيما ، إذا علمت أنها اشتملت على آية « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ؛ له ما فى السموات وما فى الأرض ؛ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم » .

يقول العلامة « ابن كثير » رحمه الله تعالى : هذه آية الكرسى ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آية فى كتاب الله .

قال الإمام أحمد (حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا سفيان ، عن سعيد الجريرى ، عن أبى السليل ، عن عبد الله بن رباح ، عن أبى (وهو ابن كعب) أن النبى صلى الله عليه وسلم سأله : أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم ؛ فرددها مراراً ، ثم قال : آية

الكرسى ؛ قال : ليهنك العلم أبا المنذر ؛ والذى نفسى بيده إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش) . (وقد رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عبد الأعلى ، عن جريرى) .

وعن أبى بن كعب أنه كان له آجر فيه تمر ، قال : فكنت أتعهده ، فوجدته ينقص ، قال فحرسته ذات ليلة ، فإذا أنا بدابة شبيه الغلام المحتلم ، قال : فسلمت عليه ، فرد السلام ، قال : فقلت ما أنت ؟ جِنٌّ ، أم إنسىٌّ ؟ قال : جنى ، قلت : ناولنى يدك ، قال : فناولنى يده ، فإذا يد كلب ، وشعر كلب ، فقلت : هكذا خلق الجن ؟ قال لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى ؛ قلت : فما حملك على ماصنعت ؟ قال : بلغنى أنك رجل تحب الصدقة ، فأحببنا أن نصيب من طعامك ، فقلت له : فما الذى يجيرنا منكم ؟ قال : هذه الآية ، آية الكرسى ؛ ثم غدوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (صدق الخبيث) . وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل رجلا من صحابته ، فقال : (أى فلان : هل تزوجت ؟ قال : لا . وليس عندى ما أتزوج به ؛ قال أوليس معك « قل هو الله أحد » ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن ؟ قال : أليس معك : « قل يا أيها الكافرون » ؟ قال : بلى ؛ قال : ربع القرآن ؛ قال : أليس معك « إذا زلزلت» ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك« إذا جاء نصر الله » ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك آية الكرسى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن) .

وروى الحاكم فى مستدركه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (سورة البقرة منها آية سيدة آى القرآن ، لا تُقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه : « آية الكرسى ») .

وقد روى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على اسم الله الأعظم ، الذى إذا سُئِلَ به أعطى ، وما دُعِىَ به إلا أجاب :

روى الإمام أحمد رضى الله عنه عن أسماء بنت يزيد قالت : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى هاتين الآيتين : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » و « ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم » إن فيهما اسم الله الأعظم) .

وسمع القاسم بن عبد الرحمن يحدث عن أبى أمامة يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم عليه وسلم قال : « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب : فى ثلاث : سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه » .

وقال هشام — وهو ابن عمار ، خطيب دمشق : أما فى البقرة فقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ، وفى آل عمران : قوله تعالى : (ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ؛ وفى طه : فقوله تعالى (وعنت الوجوه للحى القيوم) .

فضائل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة :

عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى : لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت) وهكذا رواه النسائى ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه .

• • •

أقوال المفسرين فى هذه الآية الكريمة:

بعد أن بينا فضل هذه الآية الكريمة ، بما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة ، فإنه يسعدنا أن نسجل هذه الأبحاث القيمة ، التى وردت على ألسنة المفسرين فى شأنها :

فقد ذكر العلامة « ابن كثير » أن هذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ، ثم أخذ يفصل هذه الجمل فقال رحمه الله تعالى :

١ — « الله لا إله إلا هو » : إخبار بأنه المتفرد بالألوهية . لجميع الخلائق.

٢ — « الحى القيوم » : أى الحى فى نفسه ، الذى لا يموت أبداً ، القيّم لغيره . وكان عمر يقرأ : القيّام ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غنى عنها ، ولا قوام لها بدون أمره ، كقوله : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » .

٣ — « لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم » : أى لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شىء ، لا يغيب عنه شىء ، ولا تخفى عليه خافية ، ومن تمام القيومية ، أنه لا يعتريه سنة ولا نوم ، فقوله « لا تأخذه » : أى لا تغلبه سنة ، وهى الوسن والنعاس ؛ ولهذا قال : ولا نوم ؛ لأنه أقوى من السنة . وفى الصحيح عن أبى موسى قال : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات ، فقال : (إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور — أو النار — لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) .

٤ — « له ما فى السموات وما فى الأرض » : إخبار بأن الجميع عبيده فى ملكه وتحت قهره وسلطانه ، كقوله : « إن كُلُّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » .

٥ — « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » كقوله : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ، وكقوله: « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » ، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له فى الشفاعة ، كما فى حديث الشفاعة : (آتى تحت العرش فأخر ساجداً ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى . ثم يقال : إرفع رأسك ، وقل تسمع ، واشفع تشفع — قال — فيحد لى حداً فأُدخلهم الجنة) .

٦ — « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » : دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات : ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها . كقوله إخبارا عن الملائكة : « وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسياً » .

٧ — « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » : أى لا يطلع أحد من علم الله على شىء ، إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه . ويحتمل أن يكون المراد : لا يطلعون على شىء عن علم ذاته وصفاته ، إلا بما أطلعهم الله عليه ، كقوله تعالى : « ولا يحيطون به علماً » .

٨ — « وسع كرسيه السموات والأرض » قال ابن أبى حاتم : (حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن إدريس ، عن مطرف بن طريف ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : « وسع كرسيه السموات والأرض » : قال (علمه) ؛ وعن أبى ذر الغفارى أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الكرسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده : السموات السبع ، والأرضون السبع عند الكرسى ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى : كفضل الفلاة على تلك الحلقة) .

٩ — « ولا يؤوده حفظهما » : أى لا يثقله ، ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شىء ، ولا يغيب عنه شىء ؛ والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة ، فقيرة ، وهو الغنى الحميد ، الفعال لما يريد ، الذى لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون ، وهو القاهر لكل شىء ، الحسيب على كل شىء ، الرقيب ، العلى العظيم ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

١٠ — « وهو العلى العظيم » كقوله : « وهو الكبير المتعال » :

* * *

كلمة حق ، وتوجيـــه :

قوله تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » ، وقوله جل شأنه : « الرحمن على العرش استوى » ، وقوله « يد الله فوق أيديهم » إلى غير

ذلك من النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، التى يوهم ظاهرها مشابهة الله تعالى للحوادث ، الأفضل فيها ما ذهب إليه السلف الصالح ، وهو : الإيمان بها كما جاءت دون تأويل ، وذلك لأن هـذه النصوص محمولة على نصوص مُحكمة . كقوله جل شأنه : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » ، وكقوله سبحانه : « لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

والفصل فى ذلك : ما جاء فى سورة « آل عمران » من قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب : منه آيات محكمات هن أمُّ الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ : فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ؛ وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » .

فالعرش ، والكرسى ، وسدرة المنتهى ، واللوح ، والقلم ، واليد ، والعين ، والوجه . . . إذا مر بها المؤمن : وجب عليه أن يؤمن بها كما وردت ، وأن يضع نصب عينيه قوله جل شأنه : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » .

فمن صفات الله الواجبة لذاته : أنه مخالف للحوادث ، والله تبارك وتعالى ليس بعرض ، ولاجوهر ، ولاصورة ، ولا معدود ، ولامحدود ، ولا متبعض ، ولا متجزىء ، ولا متناه .

لا يسأل عنه بمتى كان ؟ لأنه خالق الزمان ، ولا بأين هو ، لأنه خالق المكان ؛ كما لا يسأل عنه بما هو؟ لانه لايعلم حقيقة الله إلا الله ؛ والله

جل شأنه ليس بمتلوّن ، ولا متكيف ؛ وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ... هو الأول ، فلا شيء قبله ، الآخر ، فلا شيء دونه ، وهو بكل شيء عليم ... قائم بلا عمد ، واحد بلا عدد ، دائم بلا أمد ، لا ينقصه نائل . . . كل شيء قائم به ، وكل شيء مفتقر إليه ...

قيل لأبي بكر الصديق رضى الله عنه : بم عرفت ربك قال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى . قيل : فكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك : إدراك ، والبحث فى ذات الله : إشراك .

وسئل الإمام مالك رضى الله عنه عن قوله جل شأنه : « الرحمن على العرش استوى » فقال : « السؤال معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، عَلِمَ ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون » ! !

سبحانك ربى !

تنزهت عن الشريك ذاتك ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاتك...

أنت الموجود لا من علة ، الواحد لا من قلة ... بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف . .

سبحك الطيرُ فى وكره ، ومجدك الوحش فى قفره « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » .

شهد بحكمتك الليل إذا يغشى ، ونطق بجلالك النهار إذا تجلى ، وسبح بحمدك العالم الأدنى ، والملأ الأعلى .

كل شيء قائم بك ... وكل شيء خاشع لك . .

رضا كل محروم ، وعز كل ذليل ،وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ...

من تكلم : سمعت نطقه ، ومن سكت : علمت سره ، ومن عاش : فعليك رزقه ، ومن مات : فإليك منقلبه ! !

سبحانك ربى . . . لا إله إلا أنت سبحانك ! !

* * *

ولنعد إلى كلام العلامة ابن كثير :

قال العلامة ابن كثير فى قوله جل شأنه « وسع كرسيه السموات والأرض » : وهذه الآيات — وما فى معناها من الأحاديث الصحاح — الأجود فيها طريقة السلف الصالح ، إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ، أى أن التفويض والتسليم فيها أسلم وأفضل ؛ آمنا به ، كل من عند ربنا ، « ربنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب ، ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد » .

* * *

بهذه العقيدة : عمرت القلوب ، وانفتحت لذكر الله ومعرفته ، فكانت خالصة صافية ، لا يشوبها شك ، ولا يعتريها لبس ، ولا غموض . . .

فالعلم بوجود الله : أمر بديهى ، مركوز فى طباع الخلق وفطرهم ... إذ كل مولود يولد على الفطرة . وجاء القرآن الكريم لينصب الأدلة التى تثبت إثباتاً قاطعاً بأن الله واحد قادر ، لا شريك له فى ملكه ، ولا شبيه له فى صفته ، ولا نظير له فى فعله ... وما هذه المخلوقات إلا عبيد لله ، مفتقرة إليه .

قال ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : « إلهى : كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ ... أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ... حتى يكون هو المظهر لك ؟ ! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك » ! .

* * *

وقد سبق أن بينا أن خواتيم هذه السورة الكريمة : قد أخبر الأمين جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكانتها بصفة خاصة ، ولا بأس من ذكر هذا الحديث — مرة أخرى — حتى يكون للسامع وللقارىء تذكرة ، وتعيها أذن واعية .

عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال (بينما جبرائيل عليه السلام قاعد عند النبى صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فُتح لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته) .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لكل شيء سناماً ، وإن سنام القرآن : سورة البقرة ، من قرأها فى بيته ليلا ، لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ، ومن قرأها نهاراً : لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام) . (رواه ابن حبان فى صحيحه)

وها هو ذا الصحابى الجليل أسيد بن حضير رضى الله عنه يقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه من الآيات العظيمة ، وهو يقرأ سورة « البقرة » ، والرسول يفسر له ما رأى فى اليقظة .

قال أسيد بن حضير : (يارسول الله : بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة ، إذ سمعت وجبة من خلفى ، فظننت أن فرسى انطلق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ أبا عتيك ، فالتفت فإذا مثل المصباح مدلى بين السماء والأرض ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اقرأ أبا عتيك ، فقال يا رسول الله ، فما استطعت أن أمضى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ؛ أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب) . (رواه ابن حبان فى صحيحه . ورواه البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد بنحوه)

بعض ماورد عن الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة :

وهما : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ؛ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن

نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » .

هاتان الآيتان الكريمتان ، ختمت بهما سورة « البقرة » ؛ وقد ورد فى شأنهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذى تحت العرش ، فتعلموهن وعلموهن نساءكم ، وأبناءكم ، فإنهما صلاة ، وقرآن ، ودعاء) .

(رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى)

بعض ما ورد عن سورة « آل عمران »

وها نحن أولاء نضم إلى سورة البقرة : سورة « آل عمران » ، ليتبين لنا ما للسورتين من فضل ومكانة وكرامة :

عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرأوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان — أو غيابتان — أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة » — قال معاوية بن سلام : بلغنى : أن البطلة « السحرة » رواه مسلم(١) .

---

(١) الغيابتان : مثنى غيابة : يغين معجمة ، وياءين مثناتين تحت ، وهى كل شىء أظل الانسان فوق رأسه : كالسحابة ، والغاشية ، ونحوهما . وفرقان : أى قطعان .

ما أشد حر يوم القيامة ، وما أشد حاجتنا إلى ما يظلنا من لفح الهواجر وقيظ الجحيم ! !

من أراد أن يكون فى ظل وارف ظليل يقيه جحيم الحر ، فعليه بقراءة سورتى « البقرة ، و آل عمران » .

* * *

يا غادياً فى غفـــــلة ورائحا إلى متى تستحسن القبـائحا ؟
وكم إلى كم لا تخـــاف موقفـا يستنطق الله به الجـوارحا ؟
يا عجبـــاً منك ، وأنت مبصر كيف تنكبت الطريق الواضحا؟

* * *

هؤلاء طهرت قلوبهم ، وصفت سرائرهم ... نظر الله إليهم فى جوف الليل ، وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية تبشر بالجنة ، بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار ، شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

إن فى القرآن آية تسمى « بكاءة المؤمنين » كانوا إذا قرأوها ، ترى أعينهم تفيض من الدمع . . . إن هذه الآية هى قوله جل شأنه : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون » .

كانوا إذا قرأوها يتساءلون ...يقول أحدهم للآخر : ترى من أى الفريقين أنا ؟ .

قرأوا القرآن قراءة التدبر ، فحركوا به القلوب ، ووقفوا عند عجائبه . . .

ها هو ذا « تقى الدين الحسن البصرى » رضى الله عنه يتناول شربة من الماء من شدة الحر ، ثم يبكى ؛ فيقال له ما يبكيك يا تقى الدين ؟ فيقول بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين : تذكرت قول الله تعالى : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء ، أو مما رزقكم الله » ! !

أخا الإسلام :

تزود من حياتك للمعاد ... وقم لله ، واجمع خير زاد

ولا تركن إلى الدنيا كثيراً ... فإن المال يجمع للنفاد

أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد ؟ !

إن الصحابى الجليل « أسيد بن خضير » وهو يقرأ سورة البقرة ، كان يرى مصباحاً منيراً يتنزل من السماء ، وقال فى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب) ! !

هذا هو النص النبوى الشريف !

يالله !! ملائكة تنزل من علياء السماء لتُمتِّع أسماعها بآى الذكر

الحكيم ؟ ولو مضى الصحابى فى قراءته لرأى العجائب . . . وما أدراك ماهيه ؟ أمر يعلمه الله ! !

صدقت يارب العزة : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ؛ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

ماقيل فى الآيات : إن فى خلق السموات والأرض :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك ! فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم ، فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » .

قال عبيد بن عمير رضى الله عنه لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : أخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فسكتت ، ثم قالت : (لما كان ليلة من الليالى قال ياعائشة : ذرينى أتعبد الليلة لربى ، قلت : والله إنى أحب قربك ، وأحب ما يسرك ؛ قالت : فقام ، وتطهر ، ثم قام يصلى ، قالت : فلم يزل يبكى حتى بلّ حجره ، قالت : وكان جالسا : فلم يزل يبكى صلى الله عليه وسلم حتى بلّ لحيته ، قالت : ثم بكى حتى بل الأرض ، فجاء « بلال » يؤذنه

بالصلاة ، فلما رآه يبكى قال : يا رسول الله : تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ فقد نزلت على آية الليلة ، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها : « إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب — إلى آخر الآيات) . (رواه ابن حبان فى صحيحه)

وروى ابن أبى الدنيا عن سفيان مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قرأ آخر « آل عمران » ولم يتفكر فيها : ويله ، فعد بأصابعه عشراً) .

بعض ما ورد عن سورة « الكهف »

عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف : عصم من الدجال) رواه مسلم : وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ، كانت له نوراً يوم القيامة ، من مقامه ، إلى مكة ؛ ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال ، لم يسلط عليه . ومن توضأ ثم قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، كُتب فى رقٍّ ثم طبع بطابع فلم يُكسر إلى يوم القيامة) . (رواه الحاكم)

بعض ما ورد عن سورة « يٰسٓ »

عن معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قلب القرآن يٰسٓ ، لايقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة ، إلا غفر الله له ، اقرأوها على موتاكم) . (رواه أحمد ، وأبوداود ،والنسائى، واللفظ له وابن ماجه والحاكم وصححه) .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لكل شيء قلبا ، وقلب القرآن « يس » ، ومن قرأ « يس» : كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات) ، زاد فى رواية : دون « يٰسٓ » . (رواه الترمذى) .

وعن جندب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قرأ يٰسٓ فى ليلة ابتغاء وجه الله ، غفرله) .
(رواه مالك ، وابن السنى ، وابن حبان فى صحيحه) .

بعض ما ورد عن سورة « الطلاق »

لقد وقفت كثيراً ، وطال بى التأمل وأنا أقرأ سورة « الطلاق » ، وكلنا يعلم أن أبغض الحلال إلى الله ، الطلاق . فوجدتها مليئة بطاقات تدفع إلى الأمل فى تفريج الكروب :

وجدت فيها قوله تعالى : « لاتدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .

ووجدت فيها قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لايحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً » .

وقرأت فيها قوله عز وجل : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » .

وقرأت قوله جل شأنه : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » .

ووقفت كثيراً فى هذه السورة عند قوله تعالى : « سيجعل الله بعد عسر يسراً » .

وفى الختام ، دوى فى أذنى هذا الوعد الإلهى الصادق ، وهو قوله تبارك وتعالى : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ، يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، قد أحسن الله له رزقاً » .

وآخر آية هذه السورة جاءت توكيداً وتثبيتاً وتقريراً بأن صاحب هذه الوعود السابقة ، هو الله رب العالمين ، الذى لا يخلف وعده ، ولاينكث عهده ... إذ هو الذى بيده ملكوت كل شيء ... قال جل شأنه : « الله الذى خلق سبع سماوات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » .

وفى نور هذه الرحمة ، علمت أن المؤمن لايعرف اليأس إلى قلبه سبيلا ، مهما استحكمت حلقات سلسلة الهموم ، وادلهمت خطوب الأيام ... فالليل

مهما طال ، فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال ، فلا بد من دخول القبر . . .

وسألت نفسى : لماذا أكثرت هذه الآيات الحافزة على تقوى الله ، وترتبت الوعود الإلهية الصادقة على هذه التقوى ؟

وجاء كل هذا فى سورة « الطلاق » ، وعلمت أن الطلاق ، كما صوره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف ؛ حيث قال : (تزوجوا ، ولا تطلّقوا ، فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن) !

ومن ثم ، فإن الإقدام عليه لاينبغى أن يكون ، إلا عندما تحتدم الضرورة ، ويكون هو العلاج الوحيد لداء استعصى دواؤه ...

ولذلك ، فإن الله تعالى يقول : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

المشاكل الزوجية وحلولها :

وعندما تبحث عن دواء لعلاج المشاكل الزوجية ، تجد الطب الإسلامى يشخص هذا الداء ويقسمه ثلاثة أقسام ، ويصف لكل قسم دواءه :

نشـوز المـرأة :

فإن كان النشوز من جهة المرأة ، فإن الله ينصح الرجال بعلاج ذلك حيث يقول : « واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ؛ فإن أطعنكم ، فلا تبغوا عليهن سبيلا ؛ إن الله كان علياً كبيراً » .

وهذا الدواء يستعمل على حسب مايألفه الرجل فى طبع المرأة ، فإن

النساء نماذج مختلفة ، وطباع متنوعة : فمن النساء من تكفيها الموعظة الحسنة ، وتأسرها الكلمة الطيبة ، وسرعان ماتعود إلى رشدها ، وتستضىء بهدى ربها . ومنهن ذات الطبع الذى لايعدله ويقوّمه إلا الهجر فى المضاجع ، حيث يكون فى ذلك نوع من التأديب الذى يترتب عليه إصلاح أمرها . ومنهن ذات الطبع الأعوج الذى لايستقيم إلاّ بالضرب غير المبرح . وهذه المرحلة أهون بكثير من الذهاب إلى المحاكم ، وإفشاء الأسرار والعورات.

ولايجوز لأحد أن يستغل هذه المرحلة ، فيقسوعلى المرأة ويعاملها معاملةلاتليق بالبشرية ... فإن الإسلام عندما وصف هذا الدواء ، جعله آخر المراحل ، كى يبقى على دوام المعاشرة .

ولذا جاء فى الحديث الشريف مايفسر هذا ويبين مدى هذه المرحلة ، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :(... واتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك : فاضربوهن ضرباً غير مبرح) .

هذا هو الإسلام : إذا شخص الداء : وصف الدواء .

نشوز الرجل :

أما إذا كان النشوز من جهة الرجل فإن الإسلام وصف له هذا العلاج فى قوله جل شأنه : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً : فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ؛ وإن تحسنوا وتتقوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيراً) .

نشـــوز الزوجين:

أما إذا كان النشوز من الزوجين معاً : فإن الإسلام يصف هذا الدواء الذى جاء فى قوله تبارك وتعالى : (وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً ، يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيراً) ...

وقد حدث أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أرسل حكمين ليصلحا بين زوجين ، فعادا دون أن يصطلح الزوجان ، فضربهما «عمر» بعصاه ؛ فقال الحكمان : وما ذنبنا يا أمير المؤمنين حتى تضربنا ؟ فقال لهما عمر العبقرى الفذ : لو كان فى نيتكما أن تصلحا بينهما ، لأصلح الله بينهما ! !

وهذا يعطينا إشارة صريحة تفيد أن نية الحكمين أمر له مكانته . . . فالأعمال دائماً بالنيات ؛ ومن ثم ، فإن القرآن يعلق أهمية كبرى على نيات العبـــاد . . .

فهاهم أولاء أصحاب « الجنة » — التى ذكرت فى سورة « نَ » — الذين باتوا على نية السوء ، وأقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ؛ وقبل أن ينفذوا ما أقسموا عليه : عاملهم الله جل جلاله بنياتهم ، فقال سبحانه : (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم) .

هذا كله مبنى على النية ، وقد تكون نية المرء خيراً من عمله . . . ومن هنا فإن الحكمين اللذين يريدان أن يصلحا بين الزوجين المتنازعين ، عليهما أن يستحضرا نية الصلح فى أنفسهما أولا بإخلاص ، حتى ينعكس ذلك على المهمة التى يريدان إنجازها .

* * *

وإن تعجب فعجب لما يستعمله القرآن الكريم فى أسلوبه بالنسبة لهذه المشاكل الحساسة ، المتعلقة بالأمور الزوجية ، حرصاً منه على بقائها ، وحفاظاً على دوامها ...

فهو دائماً يستعمل أسلوب « الخوف » قبل وقوع الأمر الذى يخشى وقوعه ، فأنت تقرأ — مثلا — قوله تعالى : « ولايحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ، إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله »، وقوله جل شأنه : « فإن خفتم ألا تعدلوا : فواحدة » ، وقوله تعالى : « واللاتى تخافون نشوزهن » ، وقوله جل شأنه: «وإن خفتم شقاق بينهما » ، وقوله تبارك وتعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » . .

فأنت تأنس فى هذا الأسلوب : التعبير بالخوف — مجرد الخوف — وهو يستدعى اتخاذ الاحتياط اللازم قبل وقوع ما لا تحمد عقباه .

وهذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع على مدى حرص الإسلام على إبقاء الحياة الزوجية سليمة ، بعيدة عن الهزات العنيفة ، التى قد تؤدى بالأسرة وتحطمها ويكون ضحيتها — نتيجة لذلك — الذرية البريئة .

وماقصدت بهذا الاستطراد ، إلا أن أركز تركيزاً قوياً على أن المؤمن يجب أن يحل مشاكله فى هدوء وفى ضوء ما أمر الله ورسوله ، بعيداً عن الانفعالات وحرب الأعصاب وفوران الدم ، وغير هذا وذاك من الأخطار التى قد تؤدى إلى الأمراض الفتاكة .

يا صاحب الهم : إن الهم منفرج أبشر بخير ، فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تيأسن ، فإن الكافى الله

الله يُحـــدث بعد العسر ميسرة لا تجزعنّ ، فإن الصانع الله
إذا بليت ، فثق بالله وارض به إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله ، مالك غير الله من أحـــد فحسبك الله ، فى كلٍّ لك الله !

بعض ما ورد عن سورة « تبارك الذى بيده الملك »

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : « تبارك الذى بيده الملك ») رواه أبوداود ، والترمذى ، وحسنه واللفظ له ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضرب بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر ، وهو لايحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ « سورة الملك » حتى ختمها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لاأحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هى المانعة : (أى المبعدة من العذاب ، الواقية الحافظة) ، هى المنجية : (المزيلة للخوف ، المطمئنة) تنجيه (من عذاب القبر) . . رواه الترمذى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وددت أنها فى قلب كل مؤمن ؛ يعنى : تبارك الذى بيده الملك). (رواه الحاكم)

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (يؤتى الرجل فى قبره ،

فتؤتى رجلاه فتقول : ليس لكم على ماقبلى سبيل ، كان يقرأ سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل صدره — أوقال بطنه — فيقول : ليس لكم على ماقبلى سبيل ، كان يقرأ فى سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول : ليس لكم على ماقبلى سبيل ، كان يقرأ فى سورة الملك ، فهى المانعة ، تمنع عذاب القبر ، وهى فى التوراة سورة الملك ، من قرأها فى ليلة : فقد أكثر وأطيب) . (رواه الحاكم)

بعض ما ورد فى سورة « التكوير » وما يذكر معها

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى العين فليقرأ سورة إذا الشمس كوّرت ، و : إذا السماء انفطرت ، و : إذا السماء انشقت). (رواه الترمذى ، وغيره)

سيدى أبا القاسم يارسول الله . .

ومن ذا الذى تسعده العناية العليا ، فيحظى برؤية وجهك الكريم ؟ ! !

روحى بحبك فى الضياء تهيم والشوق منى فى هواك عظيم !

والقلب مسرور بذكر محمد فى ذكره نور وفيه نعيم ! !

بعض ما ورد فى سورة « اذا زلزلت » ، ومايذكر معها

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا زلزلت : تعدل نصف القرآن ، و : قل هو الله أحد : تعدل ثلث القرآن ، و : قل يا أيها الكافرون : تعدل ربع القرآن) .

(رواه الترمذى ، والحاكم)

هذه ثلاث سور تدور كل منها حول هدف محدد ، ومعنى مركز ... فـ « الزلزلة » سورة تحدثنا عن أهوال الساعة ، وكيف أن الأرض

تصيبها رجّة عنيفة، وهى تُخرج ما فى بطنها من الأموات ، وتلفظهم على ظهرها أحياء ، فإذا هم قيام ينظرون . يقول الله تبارك وتعالى :

« واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ٥ يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج ٥ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ٥ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ، ذلك حشر علينا يسير » . ويقول عز وجل:

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم ٥ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » .

عندئذ يقف الإنسان حائراً فى شأن الأرض التى رجت رجا ، وزلزلت زلزالا شديداً . . .

يتساءل الإنسان فى حيرة ودهشة قائلا : مالها ؟ أى شىء حدث لها؟ والجواب : أنها فى هذا اليوم تحدث أخبارها . . .

وما أخبارها . . . ؟

إنها تشهد على ماحدث من ابن آدم على ظهرها ! !

وعندما تحدث عن أخبارها : فإنها شهادة صدق ، ومنطق حق ، لاكذب فيه ولا رياء : بأن ربك أوحى لها . . .

فى هذا اليوم : سيرى كل عمله عندما يقبل الجميع للجزاء . . . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ٥ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ...

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا

إن أحسنوا : أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا : فبئس ماصنعوا ! !

بعض ما ورد فى سورة « الكافرون »

أما سورة « قل يا أيها الكافرون » فهى حد ثابت بين الإيمان والكفر... بين التوحيد والشرك .

إنها إخلاص العبادة لله وحده : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وقد جاء التكرار فى هذه السورة الكريمة على النحو التالى :

« قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ماعبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين » .

فقوله : « لا أعبد » نفى صريح عن عبادة غير الله ، حالا ومستقبلا. وقوله : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » إخبار عما تطويه نفوسهم من الخداع ، عندما عرضوا على الرسول — إمام الموحدين — هذه المساومة الرخيصة فى أجل المبادىء ، وهو مبدأ عقيدة التوحيد ... بأن يعبد آلهتهم ويعبدون إلهه ! !

وغفل هؤلاء — أو تغافلوا — أن التوحيد قضية لاتقبل المساومة ، أو أنصاف الحلول : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ، ثم كيدون فلا تنظرون * إن ولىي الله الذى

نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ، خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وأكد القرآن هذه المعانى الثابتة ، عندما ضرب لهؤلاء مثلا حكيما فقال : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت : اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، لو كانوا يعلمون » .

ويمضى القرآن الكريم فى زحفه المقدس على طريق التوحيد ، فيقطع خط الرجعة أمام هذه المساومة الرخيصة الهزيلة ، وأمام هذا الخداع وتلك المناورة فيقول : « فلا تطع المكذبين ، ودّوا لوتُدهن فيدهنون » .

ثم يأتى الخطاب صريحاً واضحاً وضوح الشمس فى ضحاها فيقول لهم : « لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد » .

ثم يكرر هذا — لخطورة الموقف — وهل بعد التوحيد شىء يقال ؟

ولذا جاء التكرار تثبيتاً وتقوية لخطورة المقام ، وجاء التعبير بعد ذلك بالجملة الاسمية التى تفيد الثبات والاستقرار : « ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد » : لكى يغلق النقاش فى تلك القضية .

ثم يأتى القول الفصل ، والحياد التام ، فى قوله جل شأنه : « لكم دينكم ولى دين » ؛ وبذلك يغلق أمامهم الباب الذى يريدون أن يلجوه ، طمعاً فى مساومة كاذبة ، ومناورة خاطئة .

وهذا هو موقف النبوة : لايعرف خداعاً ، ولا كذباً ، ولارياء .

وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، رجلا يقرأ هذه السورة فى صلاته ، فقال : (هذا رجل عبد ربه ، ثم سمعه يقرأ فى الركعة الثانية سورة « قل هو الله أحد » ، فقال : هذا رجل عرف ربه) .

فما أجمل المعرفة المبنية على العبادة الخالصة ! !

فاللهم يا متقلب القلوب : ثبت قلوبنا على دينك .

سورة « قل هو الله أحد »

أما سورة « قل هو الله أحد » ، فهى سورة التوحيد والمعرفة ، التى تنطق بحقيقة الكمال الأول لله تبارك وتعالى ، وهو الوحدانية . . .

فالله — جل فى علاه — واحد فى ذاته ، لاقسيم له ؛ واحد فى صفاته ، لاشبيه له ؛ واحد فى أفعاله ، لاشريك له .

وهو الصمد القوى الذى يلجأ إليه كل خلقه « يسأله من فى السموات والأرض ، كل يوم هو فى شأن » ، « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً » .

سبحانه : تنزهت عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، لم يلد ، لأنه منزه عن ذلك ، « وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » ، « بديع السموات والأرض : أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم » .

وليس له والد ؛ لأنه لو جازت عليه الوالدية ، لكان مفتقراً ومحتاجاً

إلى غيره ، ولكان متصفاً بصفات الماديات والأجسام ، ولو كان ذلك كذلك ، لكان يأكل ويشرب ، وينام ويمرض ، ويحتاج إلى مايحتاج إليه خلقه ، ولجاز عليه النوم والموت ... وجل جلال الله ، وتنزهت ذاته عن كل نقص : « إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم». « وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً » ، « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه . وهو على كل شيء وكيل ، لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

وليس لله شبيه ولا كفء ولا مثيل ، وقد قرر الكتاب العزيز ذلك فى قوله جل شأنه : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع رجلا يكثر من قراءة هذه السورة فى صلاته ، فسأله عن ذلك ، فقال له الرجل : لأننى أحبها ، فقال له الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم : « حبك إياها : أدخلك الجنة» !

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل ! !

فكل ماســوى الله باطل وزائل ، ولاقرار له ؛ ولاحول ولا قوة إلا بالله : « يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيــامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير ، يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

الـــزواج فى الإســـلام

عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه: (هل تزوجت يافلان ؟ قال لا والله يارسول الله، ولاعندى ما أتزوج به ، قال : أليس معك قل هو الله أحد ؟ قال : بلى ؟ قال : ثلث القرآن ، قال : أليس معك : إذا جاء نصر الله والفتح ؟ قال : بلى؛ قال : ربع القرآن . قال أليس معك : قل يا أيها الكافرون ؟ قال بلى ؛ قال : ربع القرآن . قال : أليس معك إذا زلزلت الأرض ؟ قال : بلى ؛ قال : ربع القرآن . تزوج تزوج) . رواه الترمذى .

أرأيت إلى إشراق النبوة ، وإلى سماحة المجتمع ؟

إن هذا الحديث فيه من المعانى ماتشرئب له الأعناق ... فهو يحل مشكلة الزواج ببساطة ملموسة ، وسماحة محسوسة معهودة ؛ وفى حل تلك المشكلة تقويم وتهذيب للمجتمع ، وبناء للنفوس ، حتى لايكون هناك تعقيد أو معوقات تعرقل زحف الإصلاح .

ولذلك دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الزواج وحذر من العزوبة :

إنه مجتمع عالج المريض بدوائه ، وأمن الخائف فى رحابه ، وتلا على الدنيا كتاب جهاده . . .

مجتمع لا يعرف التعقيد . . .

مجتمع الصلاة الخاشعة . . .

مجتمع القرآن المرتل . . .

مجتمع القيادة والعبادة . . .

مجتمع السلام والإسلام . . .

أثر الصلاة فى سلوك الإنسان

أنظر إلى مكانة الصلاة عند هؤلاء الصفوة المختارة ؟

أراد « عمر » يوماً أن ينتدب قائداً لجيشه فى حرب الروم ، وكان « عمر » بصيراً بأفذاذ الرجال ، عارفاً بأقدارهم .

لقد انتدب أكفأ القادة وأحزم الولاة من خلال خشوعهم فى الصلاة... ثم من خلال مواهبهم فى الحياة... فكأن إتقان الصلاة رشح هؤلاء لمناصب القيادة والإمارة ...

كان النعمان بن مقرن — قائد معركة « نهاوند » المشهورة — لم يكن « عمر » يعرف اسمه ، لكنه حين دخل المسجد : رأى رجلا يصلى صلاة خاشعة ، فامتلأ قلبه إعجاباً به ، وامتلأت نفسه ثقة فيه ... وكان الرجل مفتول الذراعين ، مرفوع القامة ، قوى العضلات .

وسأل أمير المؤمنين : من هذا ؟ فقيل له : هذا «النعمان بن مقرن» ، فقال : على به ، فلما مثل الرجل بين يديه ، قال له عمر : قد انتدبتك لأمر عظيم ؛ فقال الرجل العملاق : يا أمير المؤمنين ، إن كنت تريدنى لجمع الصدقات : فإنى لا أصلح لذلك ، وإن كنت تريدنى للجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، فإنى أصلح لذلك ؟

فقال أمير المؤمنين : بل أردتك للاستشهاد . ثم ولاه إمارة الجيش.

وقد كانت أول أعماله فى المعركة ، أن طلب من جنده أن يتوضأوا... ليصلوا قبل الالتحام ... وبعد الصلاة مباشرة : طلب إليهم أن يرفعوا أيديهم قائلا لهم : أيها الناس : إنى داع ، فأمنوا .

أتدرى بماذا دعا ؟

لقد قال لهم : « اللهم ارزق النعمان استشهاداً فى سبيلك تفتح به على المسلمين » .

فقالوا جميعاً : آمين .

ثم التحم بالعدو فى كرٍّ متتابع الحملات ، حتى انكشف ذلك العدو . . . . ؟ !

غير أن هذا القائد العملاق كان قد دفع الثمن . . .

لقد خر صريعاً فى الميدان تنزف منه الدماء ! !

وبينما هو فى النزع الأخير : إذ اقترب منه « معقل بن يسار » فسأله النعمان وهو يحتضر : هل تم النصر ؟ قال « معقل » : نعم ؛ فقال : الحمد لله ... اكتبوا لأمير المؤمنين .

ثم فاضت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مستبشرة !

* * *

تلك هى آثار القيادة المؤمنة المصلية ...

هل فر من المعركة ؟ هل دعا أن ينجو من أخطارها ؟ هل ترصد لمغنم زائف أو لسمعه تافهة ... كلا ... لقد كان أمل الرجل : استشهاداً يفتح الله به على الإسلام والمسلمين ...

لقد تم الفتح يا نعمان ... فنم هانئاً فى فردوس ربك الأعلى ! !

* * *

إنها نفوس مجاهدة . . فالجهاد هو الكفاح الدائب لتحقيق فكرة سامية ، أو مثل أعلى ، أو هدف نبيل . وله التزامات وتبعات لاتتحملها إلا نفوس مؤمنة بالله وبحقها فى الحياة .

وهذه النفوس تتسم — أولا — بالصمود الذى يقهر اليأس ، ويكتسح العقبات ، ويقف كالطود الشامخ فى الملمات والأزمات .

لابد أن ينتصر الحق فى هذا الوجود ، مهما تلبدت الغيوم ، وتكاثرت الهموم ، وأرعدت السماء ، وطال ليل الكفاح ...

ومهما أرغى الباطل وأزبد ، وهدد وتوعد ، فإن مصيره إلى الزوال ، ولا بد أن تكون العاقبة للحق وأنصاره ، مهما قل السلاح فى أيديهم ... ماداموا مصلين موصولين بالله رب العالمين .

قال الله تبارك وتعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

وقد يخدع الباطل — فى بعض الأحيان — بمظهره ، فترهبه النفوس الضعيفة ، غافلة عن قوانين النصر ، فتهون ، وتخضع ، ثم تزل فتركع !!

والحقيقة أن الباطل قد ينتفخ كالرغوة ، وينتفش كالفقاعة ، وما أيسر أن يكتسحه الحق بقوته الأصيلة ، فإذا هو زاهق :

قال الله تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

وقال جل فى علاه :

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » .

وقال عز شأنه :

« قل جاء الحق ، ومايبدىء الباطل وما يعيد » ؟

المثل الأعلى فى الجهاد

قال الله تبارك وتعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه : فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، ومابدلوا تبديلا » .

هذه الآية الكريمة جمعت من صفات الشجاعة والقوة ماتدهش له العقول ... ففيها الإيمان ، والرجولة، وصدق العهد، والوفاء بأوامر الله .

إنها تكشف عن نفوس كريمة صهرها الحق فى معارك الإيمان ، لابد من توافرها فى كل مجاهد ينشد الحق ويعمل لنصرته :

فالإيمان — أولا — بالله ورسوله ، والصدق فى القتال ، وهى صفة مرتبطة بالأولى ، ونابعة منها ؛ لأن العقيدة المؤمنة تجعل القتال صادقاً خالصاً لوجه الله ، لا غش فيه ولارياء .

وهذا الصدق يستتبع البذل والتضحية ودفع التكاليف .

وما أعظم التعبير القرآنى الجميل فى قوله (رجال) ، فالرجولة : شرف ، وعزة، وكرامة . والتنكير فيها : للتعظيم والتكريم ...

ولذا وردت فى مواضع كلها شرف وذات قدر رفيع : قال تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين » ، وقال جل شأنه : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » ؛ وقال تبارك اسمه : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » .

فهذه هى الرجولة التى صنعها الله على رعايته وعنايته ، فكانوا أسعد الناس عندما أقاموا فى نفوسهم مملكة الرضا ، التى صورها الرسول صلوات الله وسلامه عليه ... بقوله :

(... وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) ... وهتفوا نشيد العزة قائلين : (نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك ، لجالدتنا عليها بالسيوف !) .

لقد عالجوا المريض بدوائهم الناجع : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

وأمّنوا الخائف فى رحاب الله المنيع : « إن ولي الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

ودرسوا للدنيا كتاب جهادهم الحق : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته » .

إنه جهاد الدماء والتضحيات ، لاحديث الخطب والشعارات ... فالشعارات لاتهزم العدو ! .

والأمة التى تبتلى بالكلام ، يطيش سهمها ، ويضل فهمها ، وتذهب فى مهب الريح .

وفى قوله جل شأنه : « فمنهم من قضى نحبه » ، إشارة صريحة إلى روح البطولة التى لاترهب الموت ولاتخافه ، بل تجد فيه العبور إلى لقاء الله ... وما أجله ! .

وفى قوله جل شأنه : « ومابدلوا تبديلا » : إشارة صريحة تعطى الثبات على المبدأ ، والصمود أمام جحافل الباطل الزائفة ، حتى يندحر ويولى الأدبار .

عقبة بن نافع

يرحم الله ذلك البطل الجليل : « عقبة بن نافع » الذى ولد قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة ، وقد شب على الجهاد والتضحية والثبات على المبدا ، وتربى فى مدرسة كان الله ناصرها ، والرسول أستاذها ، والقرآن العظيم منهجها ، والجهاد فى سبيل الحق أعز أمنية لها ...

وقف ذلك البطل على فرسه ، على شاطىء المحيط الأطلسى ، يقول : يارب ! لو علمت أن وراء هذا البحر غزواً ، لخضته غازياً فى سبيلك ! !

وعقبة بن نافع : رجل دخل التاريخ من أوسع أبوابه وأشرفها .

فهو فاتح شمال أفريقيا ، ويسميه المؤرخون « قاهر أفريقيا » ، وقد بنى مدينة « القيروان » فى « تونس » ، ليتخذ منها قاعدة للفتح الإسلامى فى شمال أفريقيا .

وقد قاد جيشاً إلى شمال أفريقيا عدده عشرة آلاف مقاتل ، ولما تم له النصر ، طلب إلى المسلمين بناء مدينة « القيروان » ، لتكون عزاً للاسلام إلى آخر الدهر .

وقد بدأ بناء المدينة فى سنة ٥١ هجرية . وجاءه جماعة من المسلمين يقولون له : إنك قمت بالبناء فى منطقة مليئة بالأحراش والغابات ، ونحن نخشى مابها من الحيات والسباع وغير ذلك .

فتلفّت « عقبة » إلى مَنْ حوله — وكان من بين جنود المسلمين ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — وطلب إليهم أن يتبعوه إلى المكان الذى اختاره لبناء المدينة ، ووقف مع من حوله ، ثم أخذ ينادى : « أيّها الحيات والسباع . نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك : قتلناه » . ! !

وكانت مفاجأة ، عندما أخذت السباع تخرج وهى تحمل أشبالها ، كما خرجت الذئاب تحمل جروها ، والحيات وهى تحمل أولادها ، وصاح « عقبة » فى الناس : « كفوا عنهم حتى يرحلوا عنا » !

فانظر — رعاك الله — إلى هذا النموذج الصادق ! !

إنه من المؤمنين ، ومن رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه .

ابـــوبـكـرالصديـق

وهذا أبو بكر الصديق ، يواجه انتفاضة الردة متسلحاً بسلاح العقيدة والصمود ، قائلا : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله ، لقاتلتهم عليه » .

ويخوض فى سبيل العقيدة معركة حياة أو موت ، غير مكترث بقوة العدو ، أو مرتهب من جبروته ، لا يفرط ولا يبدل .

ورغم تعارض الآراء ، وغيبة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وإقلاع جيش « أسامة » عن المدينة ... ومع ذلك كله ، نرى الإصرار .

لقد كان « الصديق » يعيش فى جو الآية الكريمة : « ومابدلوا تبديلا » .

خالد بن الوليد

وهذا هو « خالد بن الوليد » يخوض معارك شرسة وضارية ، ويقاتل كل الأمم من فرس وروم وعرب ، ولايهن ولايضعف ، ولايتخوف ، بل يبارز الموت ، ويسعى إليه فى لهفة وشوق ، والموت يفر منه ! !

لقد رفض — وهو يحارب « طليحة الأسدى » زعيم المرتدين — أن يتراجع قليلا إلى الوراء ليلوذ بجبال طيء ويستعصم بها ...

ولقد صاح قائلا : كلا ، لا أعتصم بغير الله ! !

إنه يتحدى الموت ، والموت لايجرؤ على مواجهته ! !

ويموت هذا البطل — على الرغم منه — على فراش بيته ؛ وقال وهو يجود بأنفاسه الأخيرة : « لقد قاتلت فى سبيل الله زهاء مائة غزوة ، وما فى جسمى موضع إلا فيه ضربة بسيف : أو طعنة برمح ، أورمية بقوس ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير .... فلا نامت أعين الجبناء » ! !

رجال صنعهم الإيمان ، ففر منهم الموت فى معتركات الخطوب ، وتهيب لقاءهم ! ! .

البراء بن معرور

وهذا هو « البراء بن معرور » : يتحدى الموت فى حرب « مسيلمة الكذاب » ، ويصر على أن يتلقى به ، فيعمد إلى خطة « انتحارية » ...

يشير على أصحابه أن يحملوه ويرفعوه على تروس من جلد ، ويقذفوا به من فوق حائط الحديقة التى لجأ إليها « مسيلمة » وجنوده ، خائفاً مذعوراً أمام جحافل الإيمان المنقضة ، يقودهم خالد ...

وحين يلقى بالبطل المؤمن : يعالج — مع بعض رفاقه — فتح باب الحديقة من الداخل فى سرعة ومهارة، فينفتح الباب لتنقضّ جموع من المسلمين من الخارج إلى داخل الحديقة ، فيعملون السيف فى « مسيلمة » وأتباعه ، فيأتون عليهم جميعاً .

وتُلقب هذه الحديقة منذ هذا اليوم : « بحديقة الموت » ، لكثرة القتلى داخلها ، ومن بينهم « مسيلمة » الأفاك ... حتى ليقال إن عدد القتلى بلغ ستين ألفاً ... ! !

عكرمة بن أبى جهل

وهاهو ذا « عكرمة بن أبى جهل » ... الذى صنعه الإيمان من مفرق رأسه إلى ، اخمص قدمه ... يقف فى حرب الروم ، فى معركة « اليرموك » يقاتل بحماسة وإيمان ، مصراً على الموت فى سبيل الله ، ويرى بعض إخوانه يفرون من شدة القتال فينكر عليهم موقفهم المتخاذل ، ويتعاهد مع مجموعة من رفاقه على الثبات حتى الموت ، وقد بلغوا نحو أربعمائة فدائى ...

وقد سمع يقول وهو يندفع إلى قلب المعركة : « لقد قاتلت رسول الله من قبل فما فررت ! ! أأفر اليوم بعد أن شرح الله صدرى بالإيمان ؟ إنها لمهزلة ! » .

ويمضى فى كَرٍّ متتابع الحملات ، وحركة منقطعة النظير ، يضرب فى رقاب العدو ، فيطيح بالرؤوس والهامات ، ثم يخر فى النهاية صريعاً مستشهداً فى سبيل الله ، كما كان يؤمل .

لقد مات « عكرمة » شهيداً ، وهو يدافع عن عقيدة الإيمان ، ومات أبوه شقياً طريداً وهو يدافع عن مبادىء الكفر والبهتان .

وشتان بين قتيل ، وقتيل ! !.

جمعهما النسب ، وفرق بينهما : الإيمان ، أكرم نسب ، وأقوى سبب ؛ وإذا اختلفت العقيدة ، فلا أنساب بينهما .

ثابت بن قيس

وهذا هو « ثابت بن قيس » الذى رئى فى حرب الردة ، وقد حفر لنفسه حفرة فى الرمل ، وثبت فيها ، بعد أن أهال التراب على ساقيه ، حتى يثبت فى موقعه ولايفر حتى الموت !

كان يحمل كفنه وحنوطه على كتفه ، حتى يلقى الله على الإيمان ...

وقد رزق الشهادة فى هذا الموقف الجليل !

وهكذا : القوى المؤمنة المناضلة ، لا يرهبها الباطل ؛ لأنها فى حمى الله ، ولأنها أزهد النفوس كلها فى متاع الحياة .

وإذا رخصت النفوس فى مجال البذل ، ذهب الخوف من القلب ، وحلت محله شجاعة ليس لها حدود .

هؤلاء الأبطال : ضربوا أروع المثل فى ميدان الشرف وساحات القتال .

إنهم حقاً كما وصفهم الله جل شأنه فى قوله « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه : فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ،

ومابدلوا تبديلا » ... وفى قوله أيضاً « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقـام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » .

* * *

فى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟ !

تخرجوا فى مكان طاهر قال فيه مولانا جل شأنه : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين » .

كلها ميادين جلال وعظمة ، ترتفع بالنفس إلى مجال التضحية ، وتحملها على الزهد فى متاع الحياة !

إن نفوس هؤلاء الرجال تريد أن تلقى الله وهى تقاتل تحت هذا الشعار : « وما بدلوا تبديلا » .

مع آل بيت النبوة :

الحسين بن علي

هنا يحثو التاريخ على ركبتيه ، إكراماً وإكباراً وإجلالا لهذه المواقف الرائعة ، والمشاهد الخالدة ؛ وتتمرغ الدنيا تحت أقدام هؤلاء السبعين الذين قادهم المجاهد العظيم ، والإنسان الكريم ، شهيد « كربلاء » ... شهيد الحق ... شهيد الكرامة ... شهيد العزة : « الحسين بن على » .

وما أدراك ماهو ؟

إنه الأسد الشجاع ، الذى قاد هؤلاء السبعين فى معركة غير متكافئة ، لا فى العدة ، ولا فى العدد ؛ وقد وصفه « الحسين » بأنه يوم كثر واتره ، وقلّ ناصره .

كانوا سبعين من الرجال الأحرار ، فى مواجهة أربعة آلاف تملك السلطة والمال والسلاح والنفوذ !

ولكنها لاتملك ذرة من الكرامة .

فهل يتنازل « الحسين بن على » ويستنيم على هدهدة الأمانى ، وينال الزلفى والوسيلة لدى بنى أمية ؟

ذلك كله مرهون بكلمة واحدة تصدر من فيه « فمه » وما كان عليه لوم ولا تثريب لوقالها فى هذا الظرف العصيب ، الذى يتعرض له الإيمان .

كانت هذه الكلمة هى : « أبايع يزيد على الخلافة » ، وبعدها يكون للحسين كل أبهة ونعيم ! ! .

لكن الرجال الأحرار لايبدّلون ، لأن الموقف عصيب ، ولا يتهاونون ، لأن المعركة شرسة ؛ ولايستسلمون : لأن الوعود مغرية ؛ وإنما يزدادون إصراراً على المواجهة . . .

إنهم يحملون شعار « ومابدلوا تبديلا » .

وماذا فى الأمر ؟

أهو الاستشهاد ؟

إنهم ليبحثون عنه ، وما أمنية فى الحياة تعدل عندهم هذه الأمنية !

ولقد حاول « الحسين » — بعد أن شاهد الموقف — أن يصرف أهله وجنده ، ويقنعهم بالرجوع ، ويبقى هو وحده ليتحمل المسؤولية التاريخية ، وليلقى المصير المحتوم راضياً محتسباً . . .

وقف البطل الشجاع ، بعد أن تأجل القتال يوماً ظن العدو أنه سيتنازل ويستسلم فيه ... لكنه لم يطلب التأجيل إلا ليخطب فى أتباعه فيقول :

« أما بعد ، فإنى لا أعرف أصحاباً خيراً من أصحابى ، ولا أهل بيت أعزّ وأصل من أهل بيتى ، فجزاكم الله خيراً ... فقد بررتم وأعنتم ، وإنكم لتعلمون أن القوم لايريدون غيرى ، وإن يومى معهم غداً ، وإنى أذنت لكم جميعاً ، فانطلقوا فى غير حرج ، ليس عليكم منى زمام ... هذا هو الليل غشيكم ، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار ، وانجوا بأنفسكم» ! !

إنها كلمات حاسمة فى موقف صعب يريد بها أن يحمل وحده عبء الموقف ويواجه العدو منفرداً فى شرف وشمم .

لكن الرجال الذين صنعهم الإيمان ، ورباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينيه ، لايتعللون بالمعاذير ، ولا يلتمسون المبررات للفرار من معركة القدر والمصير ....

فماذا كان ردهم ؟

لنستمع مرهفى الآذان إلى مايقوله أولئك الأبطال ...

لقد نطق « العباس بن على » — « أخو الحسين لأبيه » — قائلا : « معاذ الله والشهر الحرام ! وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم ؟ ...

نقول تركنا سيدنا وابن سيدنا غرضاً للنبال ، ودرينة للرماح ، وحرزاً للسباع ، وفررنا رغبة فى الحياة ؟ ... معاذ الله ! معاذ الله ! بل نحيا بحياتك ، ونموت بموتك ! ! »

كلمات نضالية نافذة ، لاترضى بأنصاف الحلول ، ولا تريد بغير المواجهة الشرسة بديلا ! !

بمثل هذا المنطق القوى العجيب : يصبح « بنو عقيل ، وبنو جعفر » يعلنون عن خوض المعركة مع « الحسين » ، بل قبله ! !

ويصيح فتى لم يتجاوز العشرين من عمره ، هو « على بن الحسين » قائلا : « ألسنا على الحق يا أبتاه » ؟ ! !

فيقول الحسين : « بلى ، والذى نفسى بيده » .

فيقول الفتى : إذن والله لا نبالى ! !

أهذا منطق شاب حدث ؟ . . .

نعم . . . ولكن من هو ؟

إنه سليل النبوة ، وابن الأسد . . . وهل ينجب الأسد
اسمعوا ياشباب اليوم !

إنه لا يبالى ... مادام هدف المعركة وجوهرها : هما الحق !

* * *

وينهض « مسلم بن عوسجة الأسدى » متحمساً فيقول : « والله لولم يكن لى سلاح لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

* * *

وهكذا تتحول الحجارة فى الأيدى المؤمنة المناضلة ، إلى سلاح رهيب ، لاتتعلل بقلة السلاح . . أوضعف الوسيلة ؛ لأنها تريد شيئاً واحداً ، هو أن تعذر إلى الله ...

ولقد عاد الأبطال بعد هذه المبايعة التاريخية إلى خيامهم يتأهبون للمعركة الفاصلة ، ويتزودون من الصلاة قبل لقاء الله ... عادوا لصقل الأرواح بالعبادة ، وصقل السيوف بالجلاء .

ويصبح صباح اليوم العاشر من « المحرم » لتبدأ المعركة الرهيبة ، وإن حسيناً ليقف بكل إيمان ينظم الصفوف ويرتب الرجال ، ويحاول أن يجعل شباب آل البيت فى الصف الأول ، ليكونوا أول من يدفع الضريبة . . . ولكن الأنصار يصيحون : « معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء نشهد مصارعكم ، بل نحن أولا . . . ثم تجيئون على الأثر » .

إيثار ... حتى فى مجال الموت ! ! .

فهل تهزم هذه النفوس ؟ !

وبعد التحام القتال ، تتألق من بين الصفوف بطولات ، لا يسع

التاريخ إلا أن يجعل منها عناوين مجد وفخار إلى يوم القيامة .

لقد بلغ البطل العظيم « الحسين » رضى الله عنه من روعة الصمود وقوة العقيدة وجلال الإيمان ، ماجعله — بحق — ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ووريث المجد المعلى من جميع الأطراف .

لقد وقف فى قلب المعركة وحيداً ، والأعداء يسفكون من دمه الذكى ، ويواجههم البطل ، فتصيبه ضربة سيف على رأسه ، فتشجه ، فيشده البطل بعصابة ، ويحمل السيف والدماء تنزف منه ، ويصيح البطل قائلا : « أعلى قتلى تجتمعون ؟ إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ، ثم ينتقم لى من حيث لا تشعرون » .

لكن صوتاً منكراً لم يسمع صوت فى الوجود أقبح منه ، هو صوت « شمر بن ذى الجون » — المجرم الأكبر — ينطلق مجلجلا فى الميدان : « ارجعوا برأس الحسين » .

وياله من أمر رهيب ! !

وتتوالى ضربات المجرمين على شهيد الحق ، فيسقط مدرجاً بدمه ، ويقبل « شمر بن ذى الجون » فيجتز الرأس الشريف ليقدمها إلى « زياد » ، ثم إلى « يزيد » ! !

وهكذا تمتزج دماء أشرف الشهداء من أنصار الحق — آل بيت رسول الله — بثرى كربلاء ، وتتساقط الأجساد الطاهرة من الشيب والشباب طاهرة نقية على تلك الأرض .

وتكتب فى هذه المعركة أروع مواقف البطولة والصمود والبذل ،

مسجلة أن المبادىء الشريفة السامية لا تقهر ولا تموت ، وإن مات أصحابها عن آخرهم فداء لها .

لقد استشهدوا ، ومابدلوا تبديلا : (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء ، أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيما » .

وبعـــد . .

فهذه نماذج كريمة ، رسمنا صورتها فى جلاء ونقاء وصفاء ...

نماذج عرفت الطريق إلى الجنة ، ووجدت عبيرها ؛ وشمت ريحها ، فطارت شوقاً إليها ؛ وقدمت النفس والنفيس فداء لمبدإ الحق ورفعة الإسلام . .

إنهم خريجو « مدرسة النبوة » الذين ملأوا الدنيا عدلا وسلاماً ، ورحمة ووئاماً ، وجعلوا من البحرين — الأبيض والأحمر — بحيرتين صغيرتين تجريان فى أرض الإسلام .

فرضى الله عنهم ورضوا عنه .

اللهم لاتحرمنا أجرهم ، ولاتفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم ، إنك نعم المولى ونعم النصير ، وبالإجابة جدير .

وصلى الله وسلم على البشير النذير ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
المقـــدمة	٧
اقسام القلوب	١٣
القلوب محط نظر الرحمن	١٦
شـــفاء القـــلوب	١٧
القرآن الكريم (ذكر مبارك)	٣٠
القرآن الكريم (أمان من الفزع يوم القيامة)	٤٩
القـــرآن غـــذاء الروح	٦٨
مدرســـة القـــرآن	٧١
الويل كل الويل ... لمن حفظ القرآن ثم نسيه	٨٥
عمر : المثل الأعلى للعدل	٩٦
ســـجود التـــلاوة	١٠٠
مثل الذى لم يحفظ قرآنا	١٠٦
فى رياض القرآن الكريم	١٠٧
الزواج فى الاســـلام	١٤١
اثر الصلاة فى سلوك الانسان	١٤٢
المثل الأعلى فى الجهاد	١٤٥
عقبـــة بن نافـــع	١٤٧
أبو بكر الصديق	١٤٨
البراء بن معـــرور	١٤٩
عكرمة بن أبى جهـــل	١٥٠
ثابت بن قيس	١٥١
الحســـين بن على	١٥٣

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٩٩ / ١٩٨٠

مطابع الأهرام التجارية